أنايس نين

كولاج

رواية



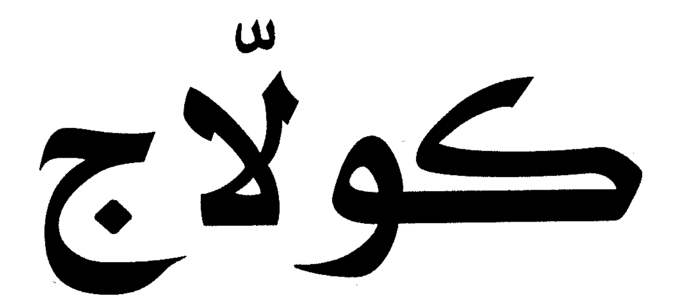


ترجمة : صلاح صلاح

كولّاج

* أنايس نين
* كولّاج
* ترجمة: صلاح صلاح
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2007
* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة - دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

أنايس نين



رواية

ترجمة: صلاح صلاح



كانت فيينا مدينة التماثيل، إذ أن عددها يماثل عدد المارة في الشوارع، وانتصبت على قمم أعلى الأبراج، وجثمت على حجارة القبور. جلست على ظهور الخيول راكعة مبتهلة، قاتلت الحيوانات وخاضت الحروب. رقصت واحتست النبيذ وقرأت الكتب المصنوعة من الحجر. زينت الأفاريز مثل تماثيل مقدمات السفن القديمة، ووقفت وسط النافورات تتلألأ بالماء كما لو أنها ولدت منذ حين. ربضت تحت أشجار الحدائق في الصيف والشتاء. تسربل بعضها بملابس حقب مختلفة وأخرى كانت عارية بلا ثياب. احتفظ رجال ونساء وأطفال وملوك وأقزام وتماثيل ناتئة بشعة ويونيكرون وأسود ومهرجون وأبطال وحكماء وأنبياء وملائكة وقديسون وجنود لفيينا بوهم الخلود.

في طفولتها كان بوسع رونات رؤيتها من نافذة حجرة نومها، حين رفرفت ستائر الموسلين البيضاء في الخارج مثل فساتين زفاف منتفخة، سمعتها تهمس كأشكال تتحجر مسحورة إبان النهار وتُبعث للحياة أثناء الليل. علمها صمتها في النهار أن تقرأ شفاهها المتجمدة كما يقرأ المرء رسائل الصم البكم. كانت محاجر عيونها الصوان تذرف دموعاً مخلوطة بالسُخام في الأيام الماطرة. لم تسمح رونات قط لأحد أن يروي لها قصص التماثيل أو التعريف بها، إذ أن ذلك كفيل بإعادتها إلى الماضي. كانت مقتنعة أن الناس لم يموتوا،

بل تحولوا إلى تماثيل، بشر مسحورون لو راقبتهم جيداً لأخبروها من كانوا وكيف يعيشون الآن.

عينا رونات كانتا بخضرة البحر، صاخبتين كشكل مصغر له. وعندما بدتا كما لو أنهما طافحتان بالعاطفة، دوت ضحكتها كعصف الرياح وشكلت وعاء كريستال لحفظ المياه الفيروزية كما في حوض الأسماك، ثم أصبحتا مشاهد من البندقية، قنوات تأمل تسبح فيهما بقع ذهبية مثل قوارب الجندول. رُفع شعرها الأسود الطويل عن وجهها وضم في عقدة فوق رأسها قبل أن يُلقى على كتفها.

كان والد رونات يصنع التلسكوبات والمجاهر، لذا لم تعرف الحجم الصحيح للأشياء لمدة طويلة، فلقد كانت تراها إما مصغرة أو مكبرة.

عاملها والدها كصديقة مؤتمنة. صحبها معه في الرحلات وإلى حفلات افتتاح التلسكوبات أو للتزلج على الجليد. ناقش معها مسألة أمها كما لو كانت امرأة وشرح لها أن كآبة أمها الدائمة جعلته يترك البيت.

كانت ضحكة رونات تروقه، وبدورها تساءلت أحياناً إن لم تكن تضحك عن شخصين، عن نفسها وبالنيابة عن أمها أيضاً التي لم تعرف الضحك. كانت رونات تضحك حتى عندما تشعر بالرغبة في البكاء.

عندما كانت في السادسة عشرة قررت أن تصبح ممثلة. أخبرت والدها بذلك عندما كان يلعب الشطرنج، لعل تركيزه على اللعبة يخفف من رد فعله، غير أنه طرح ملكه مستسلماً وشحب وجهه.

قال بفتور وهدوء عظيمين «لكني شاهدتك في التمثيليات المدرسية ولا أعتقد أنك ممثلة جيدة. أنت تقدمين نسخة مبالغ فيها

عن نفسك فقط. وفوق ذلك، أنت طفلة ولست امرأة بعد. تبدين كما لو أنك ارتديت ملابس أمك في حفلة تنكرية».

«لكن يا أبي، أنت الذي قال مرة إن ما تحبه في الممثلات كونهن نساء مبالِغات! والآن تستخدم الاصطلاح نفسه ضدي والحكم عليَّ».

تكلمت رونات بحدة وتعاظم حسها بالعدالة أثناء حديثها، الذي أخذ شكل اتهام طويل.

«طالما أحببت الممثلات وقضيت كل وقتك معهن. رأيتك ليلة تصنع لعبة تقوم على تداخل المرايا. حسبت أنها لي. أنا التي كنت أهوى النظر في المشكال(*). لكنك قدمتها إلى ممثلة. رفضت مرة أخذي إلى المسرح وقلت إني صغيرة على ذلك، لكنك اصطحبت فتاة من مدرستي، أرتني كل الزهور والحلويات التي أرسلتها لها. تريد أن تبقيني طفلة وإلى الأبد حتى أبقى في البيت وأفرحك».

لم تود الكلام كطفلة أغضبها عدم إيمان والدها بموهبتها، بل كزوجة أو عشيقة جرت خيانتها.

هاجت وغضبت حتى لاحظت أن والدها قد شحب لونه وأمسك بقلبه. توقفت مرتعبة وركضت لتجلب الدواء الذي سبق وأن رأته يتناوله وأعطته قطرات ثم ركعت بجانبه وقالت بحنان: «أبي، أبي لا تغضب. كنت أتظاهر فقط. أمثل لأثبت لك أن بإمكاني أن أكون ممثلة جيدة. كما ترى، صدقني أن كل ذلك كان تصنعاً».

أنعشت هذه الكلمات الرقيقة والدها. ابتسم بوهن وقال: «أنت ممثلة أفضل مما حسبت. لقد أخفتني».

لشعورها بالذنب وأدت الممثلة، ولم تكتشف إلا لاحقاً أن والدها كان مريضاً منذ مدة طويلة، ولم يخبرها ولم يكن هذا المشهد سبب ظهور أول عوارض ضعف قلبه.

(*) أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان. المورد.

في كل علاقة ثمة مشهد لمحكمة إن آجلاً أم عاجلاً. اتهامات، اتهامات مضادة، ثم محاكمة وحُكم.

في هذا المشهد مع والدها حكمت رونات على الممثلة بالموت لاعتقادها أن ذنبها قد تسبب من معارضة مشيئته. لم تدرك إلا لاحقاً فقط أن هذه لم تكن محاكمة بين الأب والابنة.

لفترة احتلت مكان أمها وجهرت بالتهم التي لم تتفوه بها أمها أبداً. رضيت أمها بالسكينة والكآبة أو البكاء، لكن رونات تكلمت لاشعورياً بالنيابة عن زوجته غير المحبوبة.

لم يكن تمرد ابنة ضد أوامر والدها ما أشعرها بالذنب، بل افتراض ما كان ينبغي أن يكون دور أمها ومكانتها في قلب والدها.

عرفت الآن أن والدها لم يستأ لتمرد ابنته، بل لكشف سر أنه لم يعتبر رونات ابنة بل امرأة، وإصراره على بقائها طفلة كان تمويهاً لأن صحبتها كانت تروق له.

بعد هذا المشهد بحث والد رونات عن مدرس خصوصي لأنها رفضت في الوقت نفسه الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة.

كان له أخ رفض الذهاب إلى المدرسة وأقفل على نفسه باب حجرته مع كتب عديدة. كان لا يخرج إلا لتناول الطعام وجلب مزيد من الكتب. بعد سنوات خرج ونجح في امتحاناته بتفوق وأصبح مدرساً جامعياً.

استحوذ عليه جنون لطيف لم يؤثر على دراسته ومعرفته الفلسفية بأنه لا يملك نخاعاً في عظامه. فكر والد رونات أن أخاه يمكن أن يكون مدرساً ناجحاً لابنته، يعلمها الموسيقى والرسم واللغات، وبذلك تبقى في البيت بعيداً عن تأثير الفتيات الأخريات. شرح لها ما يستحوذ على الأستاذ، مؤكداً بما لا يدع مجالاً للشك أن عليها ألا تذكر قط العظام والنخاع لأن ذلك يثير هاجسه غير المنطقي.

أغرى نقاش ذلك الموضوع بطبيعة الحال رونات كثيراً، ولقد أثار جنون نخاع عمها اهتمامها أكثر من أي شيء آخر يمكن أن يعلمها إياه.

قضت عدة أيام وهي تحاول أن تجد وسيلة لبقة لطرح هذا الموضوع في حديثهما. قامت ببحث تحضيري في المكتبة. اكتشفت أن الطيور لا تملك نخاعاً في عظامها. اشترت لعمها طير كناري صوته موسيقي وقالت: «هل كنت تدري أن الطيور لا تملك نخاعاً في عظامها؟».

«نعم ولا حتى أنا» قال عمها.

قالت رونات «يا للعظمة، هذا يعني أن بإمكانك الطيران!».

ترك ذلك انطباعاً جيداً عند عمها، لكنه لم يكن ليحاول خوض التجربة. وخوفاً من أن تلح عليه أن يسبر غور هذه الفكرة جيداً لم يذكر قط إعاقته مرة أخرى. لكن قبل أن يلزم الصمت المطبق في الحديث عن هذا الموضوع قدم لها تفسيراً عقلانياً لهاجسه.

«قالت لي أمي إنها حملت وأنا ما زلت رضيعاً. رويداً، رويداً أدركت أن الطفل الآخر، أخي، قد امتص كل الغذاء وهكذا تركني دون نخاع في عظامي».

* * *

عندما جاء بروس إلى فيينا أحست رونات بوجوده لشدة شبهه بتمثال يبتسم لها عبر حجرة نومها. كان لذلك التمثال أجنحة على عقبيه، فاعتقدت أنه يرتحل في الليل. كانت تراه كل صباح حين تتناول إفطارها، وعلى يقين أنها ترى دلالات على رحلات طويلة. كان شعره منفوشاً أكثر من التمثال وثمة طين على قدميه المجنحتين.

لاحظت في بروس عنقه الطويل وأرجله الشبيهة بأرجل عداء

وخصلة الشعر فوق جبينه. لكن بروس أنكر تلك الصلة بعطارد، وربط نفسه ببان(*) وجعل رونات ترى طول الشعر الأزغب على رأس أذنه.

أشعرتها الألفة والتمثال الرشيق المضطرب بالراحة مع بروس، الذي زادته قلة كلامه شبهاً بالتمثال. أم أنه كان يتكلم بحركات جسده، وإيماءاته كانت أبلغ من كلماته، حيث يدلف الحديث بدفعة أمامية من كتفيه، كما لو كان سيطير أو ينساب سابحاً في مجراهما، وعندما يفشل في العثور على الكلمات يهز جسمه كما لو كان يؤدي رقصة جاز

ويهز كتفيه مثل نرد. كانت أفكاره ما تزال حبيسة جسده ولا يمكنها النفاذ إلا عبره فقط.

كانت الكلمات التي على وشك التفوه بها تهز جسده أولاً حتى يمكن للمرء متابعة جريانها عبر الاهتزاز الساري فيها وفي الإيقاع الراقص لقدميه. عاصفة متفجرة من الكلمات تهيج كل عضلة، غير أنها تتجمع أخيراً في كلمة واحدة، أو كلمتين على الأكثر: «يا رجل، انظر يا رجل، يا رجل، آه يا رجل».

في أحيان أخرى تنطلق في أشكال إيقاعية مثل تكرار ألحان الجاز المتنوعة وفي رشاقة بالغة حتى لا يكاد المرء يدركها. كان يبحث عن كلمات تعادل إيقاعات الجاز. ونافد الصبر إزاء تسلسلها وتقسيماتها الزمنية والتركيبية، بدا القطع له أبلغ من الفقرة الكاملة.

لكن رونات، المتدربة على قراءة شفاه التماثيل غير المتحركة لسنوات، سمعت الكلمات المنبعثة من شفتي بروس المثاليتين. كانت الرسالة التي سمعتها تقول «ما الذي يفعله الإنسان عندما يقصى عنه ذاته الحقيقية أربع عشرة مرة، ليس مرتين أو ثلاثة، بل أربع عشرة مرة بعيداً عن المركز؟».

(*) إله الغابات والمراعي والرعاة. المورد.

بدأت برسم صورة شخصية له، رأى نفسه فيها كما رأته. كانت هذه هي البداية.

عملا معاً عدة أيام بعد الظهر. لاحظ بروس حناناً في صوتها، وما رآه تحت رموشها الحسية الكثيفة كان صورة مصغرة جداً له عائماً في الغشاوة العاطفية التي ترطب عينيها.

قال بروس: «تعالي معي إلى المكسيك، أريد التجول هناك قليلاً حتى أجد من أنا وماذا أكون».

وهكذا شرعا في رحلة معاً. أراد بروس أن يضع مساحة وزمناً بين فترات حياته المختلفة.

قال خلال القيادة الطويلة في الصحارى الحارة والوجبات في المطاعم الصغيرة ورائحة الزعفران العطري على الطرقات، والتجول في الأسواق البراقة على ألحان الأغاني المكسيكية الناعمة: «أحب سماعك تضحكين، رونات».

إذا هطل عليهما مطر في الطريق إلى حلبة مصارعة الثيران وهما يرتديان أفضل ملابسهما، كانت رونات تضحك كما لو أن الآلهة، مكسيكية أو غيرها، تمزح. إذا لم تتوافر حجرة في فندق أخذا بنصيحة ساقي حانة ووجدا نفسيهما في بيت بنات هوى، كانت رونات تضحك. إذا وصلا في وقت متأخر من الليل وعاصفة رملية تعصف دون أن يوجد مطعم مفتوح، كانت رونات تضحك.

«أريد أن آخذ كل هذا معنا» قالت مرة.

«لكن ما هو هذا؟» سأل بروس.

«لست متأكدة. كل ما أعرفه أني أريد أخذه معنا والعيش وفقه».

«أعرف ما هو» قال بروس وهو يلقي بمحتويات الحقائب على الفراش باحثاً عن ساعة منبهة. ثم يفتح الحقائب ثانية بإهمال أثناء ترحالهما بعد ساعات في طريق مهجور، يقف ليعبىء الساعة

ويتركها في وسط الطريق. وعندما ينطلقان بعيداً يتحرر فجأة مثل طفل غاضب وترن الساعة كنوبة سُعْرٍ وتهتز ساخطة محتجة على إهمالها.

أحياناً كانا يتوقفان في نزل على الطريق يبدو مثل بيت مزرعة، حيث حولت الأفران الضخمة القديمة ذات الشكل المخروطي إلى حجرات نوم، وحيث يطلق الموقد الشبيه بالخيمة والكائن في وسط الحجرة دخانه إلى فتحة التجميع في السقف والحجر البارد مغطى بقطعة سجاد حمراء وسوداء اللون. كانت رونات تسرّح شعرها ويخرج بروس دون أن ينبس بكلمة. كان خروجه مثل فعلٍ زائلٍ لأنه غير معلن ويُتبع بصمت، صمت ليس كاستراحة، بل كتحذير مسبق للموت. أشعرتها صورة وجهه الشاحب المتلاشية بأنه شخص يبحث عن الدفء في ضوء القمر. لم تنجح شمس المكسيك في إكساب بشرته سمرة، فلقد لونتها بخفة دائمة شمس منتصف ليل النرويج، بلد والديه الأم.

من وصف مبهم عرضي فهمت رونات أن والديه ربياه في صمت مطبق. كانت لهما لغة حديث خاصة وأخرى من الإنجليزية الركيكة للحديث مع الطفل، الذي تركاه في أمريكا في رعاية قريب بعيد وهو في سن الحادية عشرة دون تفسير. وصف روس قريبه ضاحكاً «بعيداً كان. حصلت على وظيفتي الأولى من جارٍ كان يملك آلات صنع حلوى يضع الأطفال فيها بنساً لأخذ الحلوى، وأحياناً هدية إن كانوا محظوظين. كانت الهدايا خواتم وصفارات صغيرة وجنود من التنك، أو بنساً جديداً ودبوس زينة. كانت مهمتي إدخال قليل من الصمغ حتى لا تنزل الهدايا من الفتحة أبداً».

ضحكا.

«عندما قابلتك في فيينا، كنت في طريقي لزيارة والديَّ، ثم فكرت: ما جدوى ذلك؟ فأنا لا أذكر حتى شكل وجهيهما».

قبل أن يغادر الحجرة كانا يشربان الجعة المكسيكية. قال وهو ينظر إلى كأسه ويديره في يده: «عندما تكون ثملاً، يلمع الزجاج العادي مثل الماس».

أعقبت رونات: «عندما تكون ثملاً يبدو السرير الحديدي كفراش ريش السلاطين الحسي».

تمرد ضد كل القيود، حتى الشبكة المحببة للكلمات والوعود وعبارات الإطراء. غادر دون أن يذكر شيئاً عن عودته، ولا حتى الكلمات التي يقولها معظم الناس كل يوم «أراك لاحقاً!».

نامت رونات مرتدية شالها البرتقالي وقد نسيت خلع ثيابها. نامت أولاً ثم استيقظت وانتظرت. لكن الانتظار في فندق مكسيكي وسط الصحراء مع نباح الكلاب فقط وحفيف النخيل وضوء الشموع، بدا نذير شؤم.

كان الريف معتماً ومليئاً باليراع وطنين زيز الحصاد. وثمة مقهى صغير مضاء بقناديل برتقالية اللون. جلس الفلاحون المرتدون أطقماً بيضاء وسخة يشربون، وعازف جيتار يعزف ويغني ببطء كما لو أنه نصف منوم. غير أن بروس لم يكن هناك.

رأت خلال عودتها في الدرب المظلم الطويل ظلاً قرب شجرة. مرت عربة أنارت أضواؤها جانب الطريق فبان شخصان قرب شجرة. وقف صبي مكسيكي يافع متكىء على جذع شجرة ضخمة وبروس راكع أمامه. وضع الصبي المكسيكي يده على شعر بروس الأشقر، كان وجهه متجهاً صوب القمر وفمه مفتوحاً.

باكية، عادت رونات إلى الحجرة، حزمت أشياءها وغادرت.

قادت العربة إلى بوريتو ماريا الساحلية حيث تعرض لوحاتها. حلت صورة شجرة الليل بزهورها السامة مكان أول رؤية لها لشجرة مرجانية تحت ضوء الشمس المتلألئة، وبزت كل الأشجار الأخرى بكثافة زهورها البرتقالية النابتة في عناقيد مشدودة واسعة

عند نهاية الأغصان العارية، لذا لم تكن هناك أوراق أو ظلال أوراق تخفف من تفجر الألوان. كانت لها تويجات بدت كأنها مصنوعة من فرو البرتقال المكسو بفروع التسلق اللولبية الحمراء كالدم. كان من الواجب أن تسمى زهرة شجرة المرجان زهرة الرغبة.

ما أن رأتها حتى أرادت رداءً بلونها وكثافتها. لم يكن العثور على ذلك صعباً في مدينة بحرية مكسيكية، إذ أن كل فساتين المكسيكيات أخذت ألوانها من الزهور. اشترت فستان شجرة المرجان. تخلل القطن البرتقالي خيوط حمراء دموية غير مرئية تقريباً كما لو أن المكسيكيين استأصلوا صبغتهم من زهرة شجرة المرجان.

قتلت شجرة المرجان ذكرى شجرة النكد السوداء التي لجأ شخصان تحت أغصانها غريبة الزخرفة.

حملتها شجرة المرجان إلى عالم الاحتفالات. عالم برتقالي.

يقال إن الأشجار تسير في هايتي. أقسم عديد من أهل هايتي أنهم رأوا ذلك بالفعل أو أنهم وجدوا الأشجار في أماكن مختلفة في الصباح. لذا شعرت في البدء كما لو أن شجرة المرجان قد انتقلت من مسقط رأسها وسارت عبر الشوارع المفعمة بالحياة أو شاطىء الاحتفال المبهر. دفعتها تنورتها المنشاة المهدبة إلى التفكير بزهرة شجرة المرجان التي لم تذبل قط على الشجرة لكنها سقطت على الأرض عند الموت بطعنة مفاجئة.

لم يبل فستان شجرة المرجان أو يذوي لونه في الرطوبة المدارية. لكن رونات لم تُغمَر، كما توقعت، بلونه إذ تمنت أن تدخله ألسنة لهيب البرتقال وتصبغ مزاجها حتى يتمشى وحياة المدينة البحرية المرحة. حسبت أنها بغرقها في ناره قد تستطيع الضحك بالمرح البرتقالي لأهل المدينة الأصليين. توقعت أن تتشرب حيويته

في عروقها. لكن بالنسبة للذات الساعية لإخفاء ندمها بقي فستان شجرة المرجان مجرد لباس.

كان الفستان يزداد كل يوم بريقاً، وينقع في ضوء الشمس ويجاري حالة نومه الباهرة، إلا أنه لم يُزِنْ المنظر الطبيعي الداخلي لرونات. نبتت داخلها شجرة ضخمة سوداء مشوهة صنع رجلان شابان منها سريراً.

أوقفها الناس عند مرورها: النساء حسداً، والأطفال لمساً والرجال لتلقي الشعاع المغناطيسي. على الشاطىء كان الناس يلتفون صوبها كما لو أن شجرة المرجان نفسها تمشي هابطة الربوة.

لكن داخل الفستان كانت هناك شجرة سوداء، الليل.

كيف خدعت الرمزية الناس! شعرت كالدجال بجرها الجميع إلى دائرتها النارية البرتقالية.

لفتت انتباه رجل من لوس أنجلوس، يرتدي سروال بحارة أبيض وقميصاً رياضياً أبيض، وكانت الشمس قد لوحت بشرته. ابتسم لها.

هل هو سعيد حقاً، تساءلت أم أنه متخفٍ أيضاً؟ على الشاطىء ابتسم فقط، لكن هنا في السوق خلف حلبة مصارعة الثيران، ضاع وهذا راق لها. لم يدر أين كان، ويداه مليئتان بقبعات القش وقش الحمير والفخار والسلال والصنادل.

تاه بين الببغاوات وشرائح البطيخ ورائحته، وملابس نوم النساء القصيرة وأوشحتهن. لامست هذه الملابس التي نفخها النسيم شعره ووجنته الرطبة. كانت سقوف سعف النخيل في غاية الانخفاض بالنسبة له فداعبت ذوائب الأوراق أذنيه.

قال «ينبغي أن أعود سريعاً. تركت عربتي وحيدة منذ ساعتين».

أجابت «ليسوا صارمين مع السائحين، لا تقلق».

«آه، إنها ليست في الشارع. لم أتركها في الشارع. بحثت في كل فندق في البلدة حتى وجدت واحداً يمكنني أن أوقف عربتي فيه قرب حجرة نومي. هل تودين الذهاب لرؤيتها؟».

قال ذلك بنبرة رجل يعرض إلقاء نظرة على عمل أصيل لبيكاسو.

سارا ببطء تحت الشمس. قال «إنها عربة جميلة. أفضل ما صنعوا. سابقت بها في لوس أنجلوس. إنها حساسة مثل الإنسان. لا تعرفين كم كان الاختبار قاسياً، الرحلة من مكسيكو سيتي. الطريق تحت التصليح ومليئة بالتحولات».

«ماذا حدث لك؟».

«لم يحدث لي شيء، لكن سيارتي المسكينة! كان بإمكاني الإحساس بكل مطب في الطريق، كل حفرة وتراب وحجارة. آلمني أن أراها تكد في الطريق، تكشفها الحجارة الصغيرة ويلطخها القار ويغطيها الغبار الأحمر. سيارتي الجميلة التي أوليها عناية كبيرة. توجب عليَّ عبور نهر. جلس صبي صغير على غطائها الأمامي منفرج الساقين وقادني بإيماءات من يده مثل مروحة مشيراً إلى أفضل ممر عبر الماء. لكني لم أعرف قط متى سنغرز هناك، سيارتي المنخفضة المسكينة في المياه الموحلة، حيث يغسل الأهالي كل ملابسهم وقطعان الماشية. كان بمقدوري الإحساس بالرمل وحبيبات الصخر في المحرك. وبإمكاني رؤية الذباب والبعوض والحشرات الأخرى تملأ فجوات أنابيب الهواء. لن أعرض عربتي لمثل هذه التجربة مرة أخرى أبداً».

وصلا فندقاً يقع في منطقة منخفضة كثيرة التعرج ومحاطاً بحديقة فيها أجمة شاسعة. هناك تحت نخلة بين الزهور والخنشار ربضت العربة مصقولة لامعة غير عاطلة على ما يبدو.

«آه، إنها في الشمس» صاح الرجل القادم من لوس أنجلوس واندفع ليوقفها في الظل «من حسن الحظ أني عدت. هل تريدين الجلوس فيها؟ سأطلب مشروباً في تلك الغضون».

وأمسك الباب المفتوح.

قالت رونات «أود الذهاب إلى الشاطىء الكائن في الجانب الآخر من الجبل. إنه جميل في هذا الوقت من النهار».

«سمعت عنه، لكن هذا لن يكون جيداً للعربة، هناك أعمال تعمير في الطريق. سمعتهم يفجرون الديناميت. لا أثق باستخدام المكسيكيين للديناميت».

«هل ذهبت لمشاهدة مصارعة الثيران؟».

«لا أستطيع أن آخذ سيارتي إلى هناك. سمعت أن الصبية يسرقون العجلات والمرايا الجانبية».

«هل ذهبت إلى حانة اللؤلؤة الليلية؟».

«هذا مكان يمكننا الذهاب إليه. هناك موقف للسيارات وحارس. أجل سآخذك إلى هناك».

لاحقاً عندما كانا يتناولان مشروباً هبطت الشمس كشهاب من الذهب القديم وغرقت في البحر.

تنفس الرجل مبتسماً «أنا مسرور لأن الجو أبرد الآن. الشمس ليست جيدة لعربتي».

ثم شرح لها أنه أعد ترتيباً لإعادة عربته إلى بلاده دون معاناة. «حجزت مكاناً في سفينة شحن وقد يستغرق ذلك ثلاثة أسابيع. لكن هذا سيكون أخف وطأة على عربتي».

قالت رونات «تأكد من شرائك قارورة مياه معدنية».

«لغسل السيارة» سأل الرجل القادم من لوس أنجلوس متجهماً.

«كلا، لك، فقد تصاب بالديزنطاريا».

عرضت أن تكلم القبطان لأنها تتحدث الإسبانية.

ذهبا إلى رصيف الميناء معاً. وقف القبطان نصف عارٍ وهو يعطي تعليماته لتحميل الموز والأناناس. كان يربط منديلاً على جبينه ليمنع سقوط العرق على وجهه. جذب الفستان البرتقالي انتباهه فابتسم.

سألته رونات إن كان يرضى بمقاسمة مقصورته مع الأمريكي والاعتناء به.

قال «أي شيء يفرح السينوريتا».

«كيف سيكون حالك عندما تتناول السمك والفاصوليا فقط أثناء الرحلة؟» سألت عابد العربات.

«لنشتري بعض الطعام المعلب وقطعة إسفنج لإزالة الملح عن سيارتي. ستكون مكشوفة على السطح».

اكتست البلدة الساحلية يوم رحيله أغنى ألوان الاحتفالات، وصفرت الببغاوات وغطى شذا المغنوليا على رائحة السمك، وتوافرت الزهور بغزارة مثل كرنفال نيو أورلينز.

وصلت رونات في الوقت المحدد لتشهد قياس السيارة التي كانت أكبر بكثير من الشبكة التي يرفعون بها البضائع المشحونة عادة. لذا مدوا لوحين من الخشب من الرصيف إلى السطح وطُلب من الرجل قيادة العربة إلى سفينة الشحن. إنش واحد خارج اللوح وتسقط السيارة والرجل في الميناء. لكن صاحب العربة كان سائقاً ماهراً ومفرطاً في حبه لها، لذا استطاع قيادتها أخيراً إلى السطح. لكنها كانت قريبة جداً من الحافة، فقام البحارة بشدها بالحبال بقوة مثل جواد جامح. أما وقد ثبتت إلى السفينة بحبال عديدة فلم يعد بالإمكان أن تنزلق من فوق الحافة.

من ثم انتقل الرجل القادم من لوس أنجلوس إلى المقصورة

الوحيدة مع قارورة المياه المعدنية الكبيرة وحقيبة مليئة بعلب الحساء.

صاح والسفينة تقطر ببطء: «سأخبرك عن حال العربة عندما تصل! شكراً على المساعدة».

بعد شهر وصلتها رسالته:

صديقتي العزيزة: سأذكرك دائماً مرحة مبتهجة في ثوبك البرتقالي. ما أحكمك، لكن لو استمعت إلى تحذيراتك! استخدمت المياه المعدنية لإزالة طبقة الملح عن عربتي، لذا كان أول ما حدث أن أصبت بحمى مرتفعة. حافظ القبطان على وعده وقاسمني مقصورته، لكن مع برميل سمك وعلب بترول وتبن حيوانات أيضاً. ثم هاج البحر وراحت العربة تتموج إلى الأمام والخلف، ومع كل حركة كنت أحسب أنها ستقع في البحر. قررت أن أنام داخلها حتى إن حدث شيء فليصب كلانا. في أول بلدة رست السفينة فيها حملنا قطيعاً من المواشي التي ازدحمت على السطح، كانت تصدم عربتي، تركلها وحاولت حتى جرحها بقرونها. في الليل كانت تتشاجر ولست بحاجة لوصف رائحتها النتنة. كان الحر ثقيلاً كبطانية. في الموقف الثاني أخذنا سيدة وقرابة عشرين بائعة هوى كن في طريقهن إلى بيت آخر. قدم القبطان مقصورته للسيدة بشهامة. قدمت التيكيلا مجاناً على السطح وعليه يمكنك تخيل كم كانت الليالي فظة. وصلت لوس أنجلوس بعد ثلاثة أسابيع في حالة يرثى لها لكن السيارة كانت في حالة جيدة. زيّتُها وأتمنى لو بمقدورك سماع صوتها على الطريق. في لوس أنجلوس شوارع رائعة.

* * *

انتقلت رونات إلى ماليبو، كاليفورنيا.

بعد أسابيع عندما استقرت في بيتها وصل بروس، كما لو كانا قد اتفقا على القيام بانعطاف ثم الاستمرار في علاقتهما. أراح رأسه

المغبر والمتعب على كتفها باحثاً عن أشد جزء من رأسها سواداً والكائن على آخر رقبتها، مكان تحمل الأعصاب فيه أكثر رسائل متع المستقبل وضوحاً. كانت عيناه صافيتين وبريئتين دون ذكريات. ابتسم ببراءة واستقر في البيت كضيف مميز دون العناية به. رفع غطاء آلته الكاتبة وقدم لها بعض الأوراق لتقرأها.

«هذه بداية رواية» قال.

ورونات قرأت:

كان الفندق في أكابولكو سلسلة من الأكواخ. بدا أن «المالك» متزمت ولم يرد أي فضائح ولا زبائن آخرين تلك الليلة. بدا أنه يعسس حول الأكواخ في الليل بنفسه. أراد أن يبقي فندقه نزلاً عائلياً.

قاطعت رونات بقولها «لكن هذا الفندق الذي نزلت فيه».

«اكملي!».

وصلت امرأة ترتدي ثوباً برتقالياً. لم يكن الفستان البرتقالي فقط ما شد الانتباه بل إنها كانت مصدر مسرة وضحكتها دافئة عفوية. كان «المالك» يعلم أنها تنزل وحدها، وكثيراً ما حام حول كوخها ليقبض على الأجنبية تمارس كرماً غير مقدس. في إحدى الليالي امتزجت ضحكة رجل بضحكتها، لكن «المالك» لم يسمعها. سمعها جار بقي مستيقظاً ليصغي قائلاً في سره إن عليه أن يحذّر الفتاة ذات الفستان البرتقالي إن اقترب المالك. كانت محظوظة. تذكر الرجل أن الضحكة هيجته بحميمة سجيتها، فتفحص في الصباح التالي الفتاة ذات الفستان البرتقالي بمزيد من التمعن، كما لو لم يلحظ وجهها وسلوكها وما بعث تلك الضحكة في الليلة الماضية. كانت تتناول الإفطار وجفونها متهدلة. ثم جاءت خادمة مسؤولة عن غرف النوم مقطوعة النفس وتكلمت مع المالك، فتكلم مع الفتاة ذات الفستان البرتقالي فوقفت متوردة الوجه وانطلقت إلى الخارج. بدا

أنها تركت الزائر باكراً في الصباح ليرتدي ملابسه بهدوء ودون تطفل على أن يغادر قبل عودتها، لكن عند ذهابها أقفلت باب المنخل لاشعورياً وسجنته في الداخل، مما دعاه لاستدعاء الخادمة التي ظنت أنها أوقعت دخيلاً في شرك فأخبرت عنه وهو يحاول فتح الباب غاضباً وهكذا علم الجميع بما حدث...

شرعت رونات في الضحك. ضحكت حتى بدأ بروس بالضحك معها، رغم أنه لم يكن متأكداً ما معنى الحدث كما كان حالها.

رأت أنه يضحك بالعدوى ولثقتة بروح دعابتها، كما زاد من ضحكها ذاك التعبير المؤثر عن الحب.

«لابد أني كنت أفكر بك يا بروس. أنت وكيف انسللت بهدوء تلك الليلة. لابد أنك من أردت أن أسجنه!».

«هل أحببته؟».

ضحكت رونات. كان شكله مثل بينوكيو قرب البيانو، لكنه غنى مثل كارسو، وإن كان بخفة أكثر. كان عائداً من زيارة والدته الجميلة ذات البشرة اللامعة والعيون التي تشبه عيني، كما قال. أخبرني أنه أبقاها لنفسه فقط لأن أخوته وأخواته كانوا متزوجين وكان يحبها وأدرك أنها تحبه كثيراً على طريقة فرويد (ويحبني لأنني أشبهها).

بعد أيام جلبت لبروس حمامة سلام وجدتها مثبتة على حائط دكان سويدي. كانت منحوتة من خشب بسمك الورق، ولها جناحان شفافان خفيفين كنسمة.

قالت رونات: «لنعلقها بخيط حتى تدور».

صعد بروس على سلم ليعلقها. طلب من رونات خيطاً جلبته له. قطع الخيط فسقطت حمامة السلام على الأرض. قال بروس «الآن

عرفت لماذا لا تبقى أزراري ثابتة، لأنك تخيطينها بمثل هذا الخيط الضعيف».

جلبت رونات خيطاً أقوى. ذهبت لإضرام نار المدفأة. حضّرت العشاء. حضرت طعاماً للكلاب، تكيلا وساكي.

«لماذا لم تشتر سرباً من الحمام؟ كنت سأحب سرباً من الحمام يطير في الحجرة».

«سرب كامل من حمام السلام لن يجلب سلاماً إلى علاقتنا».

«تعرفين نتائج فتح الصندوق» قال.

«لم تبدر منك أي إشارة على رحيلك. تدعو كل لطفٍ قذائف وقيوداً. أخذت العربة الوحيدة التي كانت معنا حتى لا يمكنني الهرب».

«لتجدين بينوكيوهات آخرين؟».

«لأجد أي شيء يجعلني أسلاك».

«تعلمين أن ما أقدمه للآخرين ليس شيئاً مما آخذه منك، لا شيء مما يتعلق بعلاقتنا».

«لكن بروس، ليس ما تعطيه للآخرين ما يؤلمني، بل ما لا تعطيه لي: أسرارك».

كانت قطعة الخشب في المدفأة رطبة فخرج منها دخان كثيف أجبر رونات على فتح الأبواب والنوافذ. وقفا مرتجفين في الريح الباردة الهابة من البحر.

قالت رونات «طالما أحببت حفلات الحدائق».

«دعيني أخبرك بحلمي. كنت استمع للموسيقى. أصبح جسمي مضغوطاً وأخذ شكل عمود في قمته هوائي كالتي في تصميم خيال

علمي، كان يطلق أنشوطات من دوائر الأضواء الكهربائية الزرقاء، التي أمسكت بأمواج أخرى في حركتها الطاردة من المركز. أهي أمواج الدماغ؟ هل تبحث عن الاتصال بالذبذبات الأخرى؟ إشعاعات دماغي ليست جداول حمى مصممة فقط، بل مضاءة بأضواء النيون وتطلق شراراً مثل دوائر كهربائية قصيرة الأمواج».

المواساة سلوك مسيحي، لا مهنة بان. بإمكان بروس الابتسام فقط عندما لا تقدر على الضحك بسرعة كافية لإعطاء دموعها الوقت الكافي كي تتبخر. وصلت دموعها هذه المرة إلى مستوى خطير من الماء.

«ليس في وسعنا عيش حياتنا المكسيكية هنا» قال بروس.

«لنبحر في قارب شراعي حول العالم. يمكنك الرسم أثناء ترحالنا وأنا أكتب روايتي. رأيت إعلاناً يقول إن القوارب الشراعية رخيصة جداً في هولندا، ويبيعون نوعاً من القوارب تبحر في البحر والنهر في آن. سأتعلم الإبحار، وأنت أجّري البيت وقابليني في هولندا عندما أكون مستعداً».

«لا أستطيع تخيّلك قبطان قارب».

لكنها اعتقدت ربما بأن هذه الحركة التي يحتاجها بروس هي الطريقة السلسة والمتغيرة والمتقلبة التي يود أن يعيش وفقها.

ذهب منذ شهر. وصف في رسائله القبطان العجوز الذي باعه قارباً شراعياً وكان يعلمه كيف يديره. كان في القارب محرك أيضاً إذا ما توقف لقلة الريح. كان يتسع لاثنين فقط، لذا لن يبحر القبطان معهما. لكن عند وصولها شعر بروس أن بإمكانه إدارته وحده.

حين قدمت كان القبطان في انتظارها للترحيب بها وترتيب إقامتها في المقصورة الصغيرة. ثم غادر بتحية وابتسامة.

بدا القارب جديد الدهان وتمايل بلطف قرب الرصيف

الهولندي. أحبت رونات خفته. أفرغت حاجياتها وأعدت حتى مواد رسمها.

نادي بروس عليها. كان مشبوكاً بين حبال كثيرة. لم تتوقع رونات أن تصبح مساعدته. حلت عقد الحبال، شدت الأشرعة، ركضت من طرف القارب إلى الطرف الآخر، راقبت انتفاخها، ضبطت مئة مشبك وكافحت لحفظ توازنها ضد الرياح المتقلبة. لم يستوعب بروس من القبطان سوى القليل، إذ كان يقرأ التعليمات من كتاب. أعطى الأوامر لرونات بلغة محترفة لم تفهمها. في الوقت الذي أبحرا فيه إلى الميناء الأول ليلاً بدا القارب الرشيق تحت أقدامهما مثل حصان بري صعب المراس.

حرم الاهتزاز المستمر رونات من النوم. شعرت أن شعرها سيتساقط كله بفعل الاحتكاك الدائم بالوسادة.

كانت المهمات على السطح بلا نهاية، حتى عند عدم الإبحار. أرادت رونات العودة وطلبت المساعدة من القبطان العجوز، حتى لو تطلّب ذلك منها النوم على السطح. لكن كبرياء بروس جرح لهذا الاستسلام. بالإضافة أنه لم يركز قط على أي عمل لمدة ساعات طويلة وكانت تجده نائماً أحياناً تحت شراع منتفخ يمكن أن يقلب القارب رأساً على عقب.

قررا أن الانطلاق على طول الأنهار قد يجلب لهما متعة أعظم. حزما الأشرعة واستخدما المحرك فقط. عندما ألقيا بالمرساة في الماء لم تستطع رونات فك الحبل السميك المبتل الكائن في الطرف الآخر من القارب. جاء بروس لمساعدتها وعندما أبعده عن الضفة ليحله وقع بروس في الماء فراح القارب ينساب مبتعداً عنه، ولم يصله إلا بعد سباحة قوية.

أبحرا في الأنهار والقنوات لبعض الوقت معبرين عن إعجابهما بالمناظر الطبيعية، الألوان البنية والرمادية المألوفة في الرسومات

الهولندية. ثم توقف المحرك عن العمل، وكانا وسط نهر بطيء الانسياب عديم الرياح.

لم يعد القارب يتبع خطأً مستقيماً، بل راح يدور بين فينة وأخرى دورة كاملة وسط النهر مثل راقص فالس.

لم يحبط خط سيره الهائم من عزيمة مراكب نقل البضائع المارة والمنطلقة إلى مكان رفع المراكب وخفضها. كانت تمر بالقارب الشراعي مسرعة دون أن تلاحظ أن قارب بروس ورونات كان بلا دفة توجهه ويمكن في أي لحظة أن يدورا ويعترضا طريق مراكب البضائع المنسابة بسرعة.

التف المركب الشراعي مرة نحو الضفة. حاول بروس توجيهه إلى الجهة اليمنى صوب قناة صغيرة. في تلك اللحظة عاد المحرك للعمل ودفع بهما بأقصى سرعة تحت جسر منخفض جداً. استمرا في الانطلاق بسرعة بعد كشط الجسر مروراً ببيوت صغيرة على الضفة. لم يقدر بروس على إيقاف المحرك الآن، فلقد استعاد حماسة الصبا. وقف بروس على الجسر وتذكر أفلام رعاة البقر. أخذ لفة حبال وأطلقها كأنشوطة إلى إحدى مداخن البيوت العابرة. أوقف هذا انفلات القارب الشراعي لكنه جمع حشداً من الناس.

«أمريكان مجانين» صاح أحدهم.

جاء شرطي على دراجة هوائية.

«لقد دمرتما جسراً تاريخياً».

قال بروس «لم أدر أنه تاريخي».

«عليك المثول في المحكمة».

تلك الليلة، مثل مهربي السلع المحظورة أبحرا (يجرهما قارب سحب) إلى حوض جاف كان بروس قد سمع عنه. هناك رفع القارب من الماء وحُمل في قطار.

سألته رونات «ما خطتك القادمة؟».

«سنكون في وضع أفضل إذا توافرت مساحة شاسعة حولنا، لذا فكرت في أخذ القارب إلى جنوب فرنسا والإبحار حول البحر الأبيض المتوسط. لقد حملته في القطار».

شغل القارب مقطورة كاملة؟ كان بإمكانهما مشاهدته من مقصورتهما عندما يخرجان رأسيهما من النافذة. كان معرضاً للشمس ومقلوباً. حلت الأشرعة وربطت على جانبيه وبدت مثل مظلات قفز مطوية. كانت الرحلة طويلة وحارة مع توقف كثير على طول الطريق.

عندما وصلا جنوب فرنسا بدت لرونات الرسامة مثل ملصق دوفي بالضبط، كلها زرقاء سماوية وبيضاء على خلفية صفار شاحب، بحر ورايات وثياب متموجة وأجساد بنية وموسيقى في المقاهي وزوايا للعشاق محاطة بشجيرات الدفلي وباعة الزهور في كل ركن: ميموزا، بنفسج، عربات بمظلات مفتوحة فوقها.

أوصلهما خط سكة الحديد إلى الحوض الجاف مع قاربهما الذي وضع على عجلات.

قال بروس «سنقوم ببعض الإبحار الكروي. في الإبحار الكروي تعتبر الأرض جسماً كروياً (كامل الاستدارة عادة، رغم أن بعض الجداول البحرية المعاصرة تسمح بشكله شبه الكروي) وسُمح به لانحناء سطحه».

«ألا يمكننا الإبحار بشكل موازٍ» سألت رونات التي كانت تقرأ الكتاب نفسه.

«ربما يمكننا الإبحار بشكل موازٍ للشاطىء فقط. وبهذا لن نضيع أبداً».

كان القارب يهبط منزلقاً إلى البحر المتوهج. أحكم الرجال ضبط المرساة وعادوا ليستدعوا رونات وبروس، ثم وضعاهما على السطح وغادروا.

كانت رونات من لاحظ أن ماءً أكثر من المعتاد ينساب فيه. كيف يمكن للبحارة البريئين معرفة أن شمس البحر المتوسط الحارة قد أذابت السدادة الكائنة في قعر القارب خلال رحلة القطار الطويلة.

رجع بروس إلى فهرس الكتاب وقرأ كل شيء عن المضخة. ضخ برهة حتى غلبه النعاس. ضخت رونات برهة ثم شعرت بالتعب وحاولت إيقاظ بروس.

«سنغرق إذا لم تضخ الماء يا بروس».

«دعيه يغرق» قال وعاد للنوم.

تساءلت رونات إن كان هذا إيحاءً رمزياً بنمط علاقتهما في المستقبل. استمرت في الضخ ببطء حتى استيقظ بروس.

أصبح سطح القارب الآن على مستوى سطح البحر. بهدوء أقنعت رونات بروس أن يضع القارب في الحوض الجاف ويترك الإبحار. عندما توقف المحرك للمرة الأخيرة أُجبر بروس على القفز في البحر وجر القارب. بينما القارب الصغير يتحرك بصمت صوب الحوض الجاف. كانت رونات ما تزال تضخ ببطء وتغني أغنية تذكرتها من الطفولة:

كان بحاراً صغيراً

لم يبحر قـ قـ قط.

من الآن، ستصبح رحلاتنا رحلات داخلية فقط. أنت تصلح لأن تكون قبطان «القارب الثمل» لرامبو.

* * *

خلف بيت رونات قبع جبل. على قمة الجبل وُضع صاروخ أحمر الذنب في مهده الفولاذي، صوب نحو السماء وأعد للتحليق.

ترك البحر الذي هناك مرة بصمات من الصدف وهياكل عظام

الأسماك على الحجر. نحت كهوفاً فينوسية عميقة في الحجر الرملي. وخلفت الشمس الغاربة ذهباً قديماً على جدرانها. تجول الناس على ظهور الجياد فوق قمة الجبل. هبطت الأرانب والسناجب والغزلان والقطط البرية والأفاعي من الجبل هائمة حتى كادت أن تصل البيت.

كانت واجهة بيت رونات كلها من الزجاج، والبحر ممتد في الأسفل وأحياناً يبدو كما لو كان واقفاً أمام لوحٍ من الألمنيوم. في الأيام التي لا تظهر فيها الشمس، كانت ترسمه على خلفية بركة ماء يعلوها سحاب ومتلبدة بأعشاب البحر وينتشر فوقها زبد كمستنقعات مغمورة بالمياه.

يغير البحر المزاج وطابع البيت كما لو كان كلاهما في حركة دائمة متبدلة.

من المكسيك جلبت شالات غير متداخلة الألوان، وسلالاً وثريات قصدير وآنية خزفية عليها رسومات طفولية وقطع حجارة مثل آلهة الهنود الحمر.

ثم هبطت الحيوانات يوماً جزعة من الجبال. رأتها رونات تركض قبل سماع صوت طقطقة الخشب أو رؤية ألسنة اللهب تثب من ربوة إلى أخرى، وتعبر الطرقات مفجرة أغصان الأجمة الجافة ومجبرة الناس والحيوانات على الهبوط إلى الوديان السحيقة ومطاردتهم بشيطانية إلى الأسفل حتى حدود ماء البحر. هاجمت النار البيوت والعربات واندلعت فوق رؤوس الشجر مرعدة كآبار النفط المحترقة.

أغارت الطائرات ملقية بالمواد الكيماوية، وأحدثت الجرافات الضخمة جروحاً عميقة في الغابة لإيقاف انتشار النار. صعد رجال الإطفاء الجبل مع خراطيم المياه وغابوا في الدخان.

في مكان ما ابتهج مضرم النار المتعمد لمشاهدة المنظر.

لم تكن حول بيت رونات أيكة، لذا أملت أن لا تصلها النار. لفت نفسها في بطانية مبتلة ووقفت على السطح تصب الماء من فوقه. غير أنها أحست بدنو الحرارة، وراقبت نزوات تقلباتها والتفافاتها غير المتوقعة وسخطها المفترس.

ساعد بروس لفترة قصيرة ثم هبط. كانت ما تزال ممسكة بخرطوم الماء وتصب منه على البيت عندما نظرت إلى الأسفل ورأت ما بدا في البدء صورة لبروس سائراً. كانت اللوحة الضخمة بالحجم الطبيعي تبتعد عن البيت وقدمان يظهران أسفل الإطار، قدمان منتعلان يبدوان بالضبط تحت القدمين العاريين في اللوحة.

أول ما طلبه منها التوقف عن رسم الحيوانات والنساء ورسم صورة شخصية له. عرض عليها الشعر الطويل الكائن على رأس أذنيه وقال: «تعرفين أني بان، وأريدك أن ترسميني كبان». وقف عارياً بعد ظهيرة تحت شمس المكسيك الحمراء ـ الذهبية، محافظاً دائماً على نصف الابتسامة، ابتسامة بان، عاشق المتعة، غير البشرية. أحب اللوحة وأعرب عن إعجابه بها كل يوم. كانت المعبودة من بين حاجيات البيت. عندما يسافران كان هو من يحزمها بحب وقد يقول: «إذا حدث مكروه لهذه اللوحة سأتحطم، شيء مشؤوم مهلك قد يحدث لبان».

وهكذا كان بروس اليوم من ينقذ بروس، أو بروس ينقذ بان من نفسه. في البدء أدارت اللوحة وجهها المضيء صوبها، لكن أثناء هبوطه التل رأته خلف اللوحة يرتدي ملابس قطنية خشنة وكنزة سميكة بيضاء. رأت مجموعة من رجال الإطفاء في الأسفل، رأت تعابير وجوههم واللوحة تسير صوبهم، وهم يرون بان عارياً بأذني فون(*) أولاً، لوحة تسير على قدمين، ثم ظهور الشكل نفسه يرتدي الملابس المعتادة ويدعم صورة توأمه، بمطابقة نصف

(*) أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان. م.

الابتسامة واليدين. بدوا مندهشين حائرين، كما لو كان من الإفراط في المبالغة الحفاظ على مجرد إعادة تصوير الأصل.

وهكذا أنقذ بروس بان، ورونات أنقذت البيت، لكن بدا أن النار قد قضت نهائياً على علاقتهما.

غير أنه بعد أيام عاد إليها.

«بعد صحبتك رونات، تبدو النساء الأخريات كطعام رضيع بعد الإدمان على تعاطي الهيروين».

قضى الوقت بحثاً عن علاج لعلاقتهما.

«سريتي ما تجعلك غير سعيدة، مراوغتي، صمتي. وعليه وجدت حلاً. كلما أصابك الإحباط لغموضي وإبهامي، إليك بمجموعة من صناديق الأحاجي الصينية. طالما قلت إني صندوق أحاجي صينية. عندما تكونين في حالة نفسية ترين فيها أني أقف حجر عثرة أمام ثقتك وحب انفتاحك وحب مقاسمتك التجارب، عندها افتحي واحداً من هذه الصناديق وستجدين فيها قصة عني وعن حياتي. هل تستهويك هذه الفكرة؟ هل تعتقدين أنها ستساعدنا على العيش معاً؟».

ضحكت رونات وقبلت. أخذت الصناديق بين ذراعيها ووضعتها فوق الرف العلوي في الخزانة.

عاد الوقت الذي شعرت فيه ثانية بأنها تفتقر للحب، بأن الحب الذي كان أبكم مراوغاً ومبهماً لم يكن حباً حقيقياً. لذا أنزلت الصناديق الصينية وبعثرتها على المنضدة وأخذت واحداً كيفما اتفق كما يلعب المرء الروليت، وراحت تفك ألواحه بصبر. لكن أخيراً بعد جر وسحب ولف طويل وجدت فيه ورقة مطوية بإحكام.

قرأت:

«حين قابلت كين أول مرة كنت في السابعة عشرة، وكان أكبر مني بسنة فقط، لكن حيث أن والده كان مبشراً في الصين ولأنه ولد

هناك تحلى بنضوج لم أملكه. وسرعان ما هيمن على حياتي. لم تكن له صلة بعالم الحياة اليومية، بل بالأحلام والتخيلات فقط. توقفت عن السباحة وركوب الأمواج على لوح خشبي وتسلق الجبال وتخليت عن أصدقائي الآخرين لأستسلم كلياً لعالمه السحري. ما سجنني وقيدني لم يكن بمقدوره السيطرة عليه. لم يدرك أهمية الوظائف والمهن والدراسات ووالديه والواجبات والالتزامات أو المسؤوليات من أي نوع كان. اعترف أن الهيروين يساعده ـ لكني رفضت تعاطيه معه. أقر أنه تعاطى كثيراً منه منذ عودته من الصين دون علم والديه. وكان يغمى عليه في بعض الأحيان. كنت آتي لحجرته فأجده نائماً بعمق، لكن أنفه مقروص وشحوبه غير صحي. أعود بعد يوم فأجده ما زال نائماً. كان يعلم أن الأفيون مضر، غير أنه لم يقدر على التوقف عنه. حاولت مساعدته. أصبحت صارماً. قلت له إن لم يبدأ في العمل في مشروع فيلمه الذي كنا سنحققه معاً، سأتركه. ارتعب، فلقد كنت صديقه الوحيد. ذهبنا إلى المكسيك في رحلة معاً. هناك اعتقدت أنه شفي. كنا نعمل في فيلمنا حيث استمتع بتصويري وابتكار المواقف. تأخرت ليلة أكثر من المعتاد في حفلة زفاف محلية، وكان قد تعذر بالتعب وعاد إلى الفندق. عندما عدت كان غارقاً في ذاك السبات العميق الذي يمكنني التفريق بينه وبين النوم العادي. في اليوم التالي كان ما يزال نائماً. لم أرتح للونه، إذ كان لون الموت العاجي الشمعي. استدعيت طبيب القرية. ألقى عليه نظرة وقال: «لقد تعاطى كمية كبيرة من الهيروين، وأنا لست طبيب مدمني مخدرات. قد لا يصحو من رقاده أبداً». سمعت في مثل هذه الحالات إذا استطاع أن يستيقظ لتدخين غليون واحد قد يعود للحياة. حضرت غليوناً كما رأيته يفعل بالضبط. كنت خائفاً. كان تنفسه ضعيفاً حتى كدت لا أسمعه في بعض الأحيان. لكني لم أستطع إيقاظه بما فيه الكفاية لتدخين الغليون. أما وقد غادر الطبيب وكنت وحيداً في الصحراء المكسيكية، تعجبت كيف يمكنني إنقاذه. تذكرت الوقت الذي دنوت فيه من الموت. كنت أسبح وسحبني جَزْر قوي بعيداً.

مكثت طويلاً في الماء ولا أذكر أني أنقذت، لكن أذكر حارس الإنقاذ يقوم بعمل تنفس صناعي لي عن طريق الفم. تنفس صناعي عن طريق الفم! أخذت غليون كين وسحبت نفساً حبست دخانه في فمي، ثم ملت فوقه وفتحت شفتيه ونفثت الدخان في رئتيه مرات عدة، حتى تنفس أخيراً بعمق مرة أخرى وفتح عينيه. كانت هذه هي البداية».

جلست رونات تحت أشعة الشمس التي انعكست من البحر في الأسفل، والتي أذابت السقف والجدران في أمواج من الأضواء والظلال. بدا كما لو أن الخطوط على الجدران والمنضدة تضعها في صندوق صيني أيضاً كشخصية من ماضي بروس. عندما عاد كانت ما تزال جالسة هناك وصندوق الأحاجي مفتوح على ركبتيها. قابلته برقة وصمت لا يماثلان سلوكه، إذ أن عينيه حين يكون صامتاً تشبهان رذاذ النافورات البارد عديم الألوان. في حين أمطرته عيناها بذرات ذهبية كالتي سقطت من الألعاب النارية في المكسيك ليلة شعرا أنهما التحما كتوأم.

قال آنذاك «تقولين إني أحب نفسي فقط وإني أحب بان، وبان هو أنا، لكن أنت لماذا ترسمين نساءً فقط؟».

مرت أسابيع قبل أن تشعر بالحاجة لفتح صندوق آخر. كان بروس يمثل في فيلم وصحب المخرج لصيد السمك. لم تعد تحب صيد السمك بعد ذلك مثل نفورها من صيد الطيور. بقيت ثلاثة أيام وحيدة. فكرت خلالها أن مخيلتها قد رسمت صورة لوئام بين بروس والرجال الشباب أكبر من وئامه معها، لكنها الآن لم تعد متأكدة. شعرت بأن كين لم يقدر على ضمه لعالم الأفيون الخاص به. أحست بعزلة كين والحاجة لمعرفة بروس بشكل حميمي حتى لو لم يكن ما تكتشفه بروس اليوم بل بروس الأمس. استغرق فتح الصندوق الثاني وقتاً أطول. بنت أهراماً من الصناديق، ثم فتحت الذي على القمة.

وقرأت:

«في المكسيك وجدت وكين عديداً من الصبية الجميلين، استأجرناهم مقابل بيزوسات قليلة. علمناهم متعة جلد بعضهم بعضاً بالسياط. معرفة كين بالفن لا تصدق. كان متذوقاً للفن بالتدرج. بدأنا بالضرب الرقيق وانتهينا بالخيزران الجارح. كانت من شعائر الطقس الذي كنا نفضله الذهابُ إلى الغابة في السَحَر، وقطع أغصان خيزران مختارة واللهو بمطاردة الضحايا والقبض عليها. في صبيحة أحد الأيام افترقنا بطريقة أو بأخرى. تُركت وحدي مع أصغر الصبية الذي وعدته بإمكانية جلدي هذه المرة. داوم على لمس بشرتي بدهشة لبياضها ومعبراً عن متعة ترك بصمة عليها. غرز أظافره في ساعدي. عندما وصلنا إلى تنظيف وقطع الأغصان كان توقع الصبي بالمتعة قد أثارني فاستدرت وجلدته. لم نلاحظ بعض الفلاحين الذاهبين إلى العمل. لاحظوا وجودنا أولاً وأحاطوا بنا بصمت. في البدء ذهلوا لرؤية صبيين عاريين، من ثم غضبوا. كنت أمسك بالخيزران عندما رأيتهم يقفون في دائرة ويحدقون بي. كانت كل عيونهم تشع بالغضب. ارتبكت وقلت في خوفي أول ما جال في بالي «اضربه لأنه سرق ساعتي». سُجن الصبي مدة ثلاث سنوات. صاح بي وهم يسحبونه «عندما أخرج سأقتلك!» فأُجبرت على مغادرة المكسيك».

أخذت رونات الصفحات وطوتها بإحكام كما كانت حتى يمكن إعادتها إلى سابق عهدها، ثم دفعتها عبر باب الصندوق وأعادت الألواح المختلفة إلى أمكنتها كما لو أنها تدفن القصة إلى الأبد. هبطت التل مع الصندوق. جلست على حافة الصخرة وألقت به عالياً وبعيداً بشكل منحن في البحر، ثم عادت إلى البيت ووضعت هرم الصناديق أمام المدفأة وأحرقتها.

جمعت رونات كل أغطية أسرة البيت الكتان الملطخة ببقع الحب والأحلام والكوابيس والدموع والقبلات والمشاحنات، والسديم

المنبعث من لمس الأجساد، وضباب التنفس والدموع الجافة وأخذتها إلى المغسلة في سفح الجبل.

الرجل الذي كان يدير المغسلة حيّرها. كان طويلاً أسمر البشرة والعينين. يرتدي قميصاً أحمر اللون يظهر وسامته الأجنبية. لكن ليس هذا ما جعل حضوره هناك غير متوقع، بل الكبرياء والرقة في حمل الغسيل والتعامل معه. حيّا رونات بنبرات أصوات متغيرة متعددة معتادة على السحر والفتنة.

انحنى حين حياها. كانت أنامل يديه طويلة رشيقة. طوى الأغطية الجافة كما يطوي غطاء مائدة مزركشة. كان متحفظاً مؤدباً كما لو أن الغسيل مهنة رجال البلاد المحترمين الطبيعية. ويأخذ النقود كأنها باقة ورد ويعيد الباقي كما يعاد كأس شمبانيا.

لم يعلق قط على الطقس كما لو كان ذلك شيئاً مبتذلاً ويراكم الغسيل فوق بعضه كمن يتفحص محتويات دولاب ملابس في بيته. كان أبياً دمث الخلق ويتظاهر بأنه لا يرى النساء اللاتي يأتين بلفات الشعر في رؤوسهن، كما يتغاضى مستخدم رفيع المرتبة عن زلات سيده العارضة.

قابل رونات بابتسامة عريضة، فبدت أسنانه القوية السوية باستثناء سن حليبي أضفى على ابتسامته لمسة دعابة.

تعاملت رونات أيضاً مع حزمة غسيلها كما لو أنها فطائر محل يخص علية القوم.

أصبح إيقاع الآلات كأنغام افتتاحية أوركسترا في حفلة راقصة. لم تذكر الطقس قط أيضاً، كما لو أنهما أدركا أن الطقس كان مجرد خلفية لمواضيع أهم. اتفقا أن على البشر أن يعتنوا بالغسيل غير النظيف الذي أعطي لهم، ويتحلوا في الوقت نفسه بملكة

تحرير أنفسهم دون أن يلاحظوا وينسوا بعض الالتزامات للتركيز على كيفية تعزيز الحياة اليومية والرقي بها وإضافة السحر إليها.

كانت تخبره عن كل زائر يعودها وتصف كل زي وشخصية وحديث، ثم تعيد إليهم الحزمة كما لو كانت الأزياء المنبوذة التي ينبغي إعادة السحر إليها من أجل الحفلة القادمة. أثناء حديثها تعامل كلاهما مع مناشف الضيافة من «ولورست» كأنها أغطية مناضد مزركشة من بروكسيل.

نظر إلى حزم الملابس المصطفة على الرف والمعدة للتسليم كما لو كان يختار لوحة في معرض فني وقال: «أعرف غسيلك دائماً من ألوانه الزاهية».

لاحظت لأول مرة، ويده البنية تحط على الورق الأزرق حول الحزمة، خاتم شعار النبالة الذهبي.

انحنت لتتفحص الرموز. كان الخاتم مقسماً إلى أربعة أجزاء. نقش على واحد رأس أسد، وعلى الثاني قلعة صغيرة، والثالث ورقة برسيم رباعية الأجزاء والرابع صليب مالطي.

«لكني رأيت هذا التصميم في مكان ما» قالت رونات.

«هل يمكن أن يكون على درع أحد التماثيل في إحدى حدائق فيينا؟».

«نعم، ذلك ممكن. عاش بعض أسلافي هناك، وتملك عائلتي قلعة تبعد عن فيينا أربعين ميلاً. ما زال والديَّ يعيشان فيها. شعار النبالة يعود إلى الكونت أوستيرلينج».

أخرج محفظته وعوض صور الأطفال مستديري الوجوه. رأت قلعة بأبراج وعجوزين وقورين يقفان على أحد سطوحها. كان للرجل لحية والمرأة تحمل مظلة ويمكن للمرء مشاهدة رباط حول حنجرتها ويدها على رأس صبي صغير.

«هذا أنا».

لم تود رونات أن تسأل: كيف جئت إلى هنا، وماذا تفعل هنا في حين يمكن أن تفتح زجاجات النبيذ المعتق المصنوع من ممتلكاتك وتجلس على موائد طعام جميلة والخدم من حولك؟

«بعد الحرب أثقلتنا الديون والأرض المرهونة. شعرت أن حياتنا برمتها قد أصبحت جامدة وصعبة. منعتني التقاليد من القيام بأي عمل. جئت إلى أمريكا، وذهبت إلى شيكاغو. كنت في السابعة عشرة من عمري فقط فبدا كل شيء جديداً مبهجاً. أحسست كأنني من الرواد الأوائل. أحببت سلوان الماضي والمقدرة على العمل دون الشعور بإهانة رهط كامل من الأقارب. قمت بكل أنماط الأعمال، وأحببت حرية ذلك. ثم قابلت ملكة جمال الراين الذهبي تلك السنة. كانت جميلة بشكل لا يصدق. تزوجتها ولم أعرف حتى مهنة والدها. لاحقاً اكتشفت أنه يملك سلسلة من محلات غسل الثياب. عينني مراقباً. في البدء كنا نسافر كثيراً، لكن بعد موته أردنا أن نمكث في مكان واحد لتربية أطفالنا. لذا جئنا إلى هنا».

«ولم تعد إلى الوطن أبداً؟».

«عدنا مرة، لكن زوجتي لم تحببها. اعتقدت أن القلعة حزينة وقديمة وأنابيب المياه لا تعمل بشكل جيد. لم تحب الكياسة المفرطة والقماش المذهب الذي أكلته العثة، والحرير الأصفر والغبار على زجاجات النبيذ».

دعته كونت المغسلة وهي تنظر إلى الخاتم الذهبي المنقوش يشع بشعار نبالة العائلة عبر مساحيق الغسيل.

ظهرت امرأة ضخمة في الباب الخلفي ونادت عليه. كانت طويلة وعريضة مثل مي وست، وغمرت العيون الجميلة والشعر والملامح بعمق في وسائد من اللحم مثل جوهرة في غطاء سرير من الريش.

قال لرونات «هذه زوجتي» ولزوجته قال «هذه جارة قطنت مرة في فيينا».

ثم أخذ حزمة غسيلها إلى العربة، فتح الباب وضعها على المقعد بعناية حتى لا يمسك الباب المغلق بأي منها، كما لو كانت حواف قميص نوم مطرز.

منذ اليوم الذي أخبرها فيه قصة لقبه، اختلطت بشكل مشوش في فتحتي أنف رونات رائحة صابون المطبخ والكتان والصوف المبلولين ومساحيق الغسيل برائحة خزانة نفائس قديمة فتحتها مرة في محل في فيينا. خُط داخل الخزانة بقصب مزركش ألصق بالخشب وله رائحة خشب الصندل. كان الماضي مثل حقائب فأرة الطيب القديمة المليئة بالأعشاب الطبية والزهور التي تنفذ في الملابس وتبقى فيها.

كلما ذهبت لزيارة كونت المغسلة كانت رائحة عطور الخزانة القديمة تغمرها، طغت على مساحيق الغسيل رائحة بتلة الورد التي حفظتها والدتها في صندوق موسيقى صغير، رائحة خشب الصندل المصقول الثمين لطاولة حياكتها، وفانيلا معجنات البندقية، والتوابل الحادة وتبغ غليون والدها.

* * *

يمكن لغياب السكان أو الحركة العرضية في بلدان كاليفورنيا الصغيرة أن تضفي على المكان أجواء لوحات الطبيعة الصامتة. هكذا ظهرت وهلة في عيون امرأة تقف وسط قطعة أرض خالية. لا عربات مرت ولا نور شع، لا أحد سار ولا نوافذ ومضت، لا كلاب نبحت ولا أطفال قطعوا طريق.

كان للمكان اسم ناعم: داوني، اسم يشي بحسية الشعر الأملس على البشرة الناعمة. لكن داوني ليست كاسمها. كانت متماثلة مرتبة

ورتيبة. لم يمكن تمييز بيت عن آخر، وأظهرت فجوات المآرب المفتوحة ما كان مخفياً في غرف التخزين الكائنة تحت السطح مباشرة: دراجات هوائية مهشمة، صحف قديمة، صناديق ثياب عتيقة وقوارير فارغة.

أخفت المرأة الواقفة في قطعة الأرض الخالية معالم أنوثتها في سروال فضفاض وكنزة واسعة متهدلة. غير أن شعرها الأشقر كان مستديراً ومنتفخاً كشعر دمية.

وقفت دون حراك وأصبحت للحظة جزءاً من الطبيعة الصامتة إلى أن أبطأت سرعتها إذ وصلت عربة شحن لَوَّحَ فيها بعض أصدقائها لها بأيديهم. ركضت برشاقة صوبهم وساعدتهم على فتح باب الشاحنة الخلفي. فرغت اللوحات ومساند الرسم التي كانوا يحملونها في قطعة الأرض الخاوية.

ثم أصبحت المرأة التي ترتدي السروال الفضفاض في غاية النشاط. راحت تحرك وتدير اللوحات في زاوية تنيرها الشمس أكثر مما تطغى عليها.

تناقضت اللوحات بحدة مع ألوان داوني الواهنة. زرقاء وخضراء وأرجوانية داكنة جداً، كل أطياف الليل المخملية.

بدأت العربات في التوقف وحضر الناس لإلقاء نظرة.

قال أحد الزوار: «ليست لهذه الأشجار ظلال».

قال زائر آخر: «ليس في الوجوه تجاعيد. لا تبدو حقيقية».

كان الحشد الذي تجمع هو نفسه الذي جاء إلى قطعة الأرض الخالية في عيد الميلاد ليشتري أشجار عيد الميلاد، أو يأتي في الصيف ليبتاع الفراولة من مزارعي البستانين اليابانيين.

«لم أر بحراً مثل هذا من قبل» قال مشاهد آخر.

ضحكت امرأة السروال الفضفاض وقالت «ينبغي على اللوحة

أن تأخذك إلى مكان لم تره من قبل. لا تود أن تنظر دائماً إلى الشجرة نفسها، والبحر ذاته والوجه عينه كل يوم، أليس كذلك؟»

غير أن هذا بالضبط ما أراد سكان داوني فعله. لم يودوا أن يجتثوا جذورهم. كانوا يبحثون عن صور تماثل داوني، رسم جداتهم وأطفالهم. ضحكت الرسامة وهم أحبوا ضحكتها. غامروا بشراء بعض اللوحات الصغيرة، كما لو أن صغرها يمنعها من أن تكون خطيرة أو أن تغيير جو حجرات معيشتهم.

«أساعدك لتمييز بيتك عن بيت الجيران» قالت الرسامة.

لم تكن هناك ريح. بين الزوار جلست الرسامة والأصدقاء على مقاعد طويلة يدخنون ويتبادلون الحديث. إلا أن هبة ريح مرتحلة بنزوة رفعت جديلة شعر أشقر عن وجه الرسامة وكشفت خصلة شعر سوداء تحت شبكة الشعر المستعار. لكن لم يلاحظ أحد أو يعلق على ذلك.

حلّت العتمة. حزمت الرسامة والأصدقاء اللوحات المتبقية وغادروا.

عند العودة إلى بيتها القريب من البحر كدست الرسامة اللوحات أمام حائط. ذهبت إلى حجرة نومها وحين عادت كان الشعر المستعار قد اختفى وسقط الشعر الأسود الطويل على كتفيها. كانت ترتدي ثوباً مكسيكياً من القطن بكل ألوان قوس قزح الناعمة.

كانت رونات. الشعر الأشقر المستعار ملقى على الفراش مع السروال الفضفاض والكنزة الكبيرة. والآن عليها أن تجعل اللوحات تبدو ثانية كعملها الفني الخاص، ما يعني أن تعود إليها الأشكال الوهمية المتعاقبة في أحلامها الليلية. المناظر الطبيعية المحضة والمشاهد البحرية العادية والأشكال البسيطة كلها تحولت إلى ما كانت عليه قبل معرض داوني. أصبحت الأشكال المتموجة نواقيس،

والنواقيس قرعت فوق المحيط. الأشجار ماجت بإيقاع العواصف وحجبت تعرجات السحب الشبيهة بأوشحة النساء العربيات أو الهنديات. الحيوانات التي لم تشاهد من قبل، سلسلة اليونكرون، قدمت رؤوسها كي تتملق. صور النمو الصبور للزهور كرهط من الراهبات المرتعشات. الحيوانات التي تحلت بعيون محدقة كريستالية، في حين بدت عيون الناس مصنوعة من الرواسب الكلسية المدلاة من سقوف المغارات. تفجيرات الأسطورة، الشوارع الثرثارة، الرياح الفاسقة، حالات الرمل المزاجية الإيحائية، ركود الصخور، تآكل الحجارة، إبر أوراق الأشجار، تكاثر الساعات، عرافات بقدرات تناضح(*)، مراهقة كالصبار، تجاعيد العمر، تقرحات الحب، بشر ساعون للعيش مرتين بقلب واحد، توائم بلا فصام.

أعادت للمناظر الطبيعية الخاوية كل السمات الأسطورية الكائنة في أحلامها، وهي تفكر بكلمات روسو في إجابته على سؤال: «لماذا رسمت أريكة وسط الأدغال؟» فقال «لأن للمرء الحق في رسم أحلامه».

كانت رونات ترسم قناة في البندقية تومض كمزلاج عصي من نسيج فضي وذهبي متغير، وظل الجندول على الماء الذي رآه بايرون أو جورج ساند، لكن الجندول في الواقع كان ماراً في مجراه مرتدياً ملابس العمل لا حلته البحرية المبهرجة. لم يكن ينقل حبيبين منتشيين، بل أريكة من الجلي أنها مفروشة حديثاً بقماش جديد مزركش أحمر زاه، وفي طريقها كي تُسلم بسرعة لقصر شغل مؤخراً، شغله عدو جديد، مرمم البيوت القديمة. مُسَيِرُ الجندول الثاني استراح فيه أثناء انتظاره ليساعد في حمل الأريكة إلى

(*) تبادل يحصل بين سوائل مختلفة الكثافة ومفصولة بعضها عن بعض بغشاء عضوي حتى يتجانس تركيبها. المورد.

صاحبها واسترخى حتى غلبه النعاس. كانت رونات تضحك. أنهت اللوحة برسم وجه قط ينظر عبر نافذة قوية القضبان.

حين كانت طفلة شعرت بأنها ولدت لإنقاذ كل الحيوانات. اهتمت باسترقاق وعبودية الحيوانات، الحمار الذي يحرك الدواليب لإخراج المياه في مصر، القطعان المسافرة في القطارات، الدجاج المربوط بأرجله معاً، الأرانب التي تطلق عليها النيران في الغابة، الكلاب المقيدة برسن، والقطط المتروكة جائعة على الأرصفة. قامت بعدة محاولات لإنقاذها. قطعت الأسلاك من حول أقدام الدجاج فانتشرت في كل أرجاء السوق. فتحت كل الأقفاص التي تمكنت من العثور عليها وتركت الطيور تهيم طائرة. فتحت أبواب الحقول ودعت القطيع طليقاً في الخارج.

لم تدرك عدم جدوى مهمتها إلا بعد بلوغها سن الرابعة عشرة. جاوزت القسوة الحدود، ولم يعد بمقدورها إخمادها. امتدت من قمم بيرو وأدغال أفريقيا إلى أركاديا، كاليفورنيا حيث احتج الناس على الطواويس البرية التي كانت تجول في الجوار وسجنوها.

هكذا بدأت رونات في رسم صداقة النساء والحيوانات. رسمت امرأة مضيئة مستلقية بسلام جانب نمر، امرأة ببشرة مشوبة بالزرقة عائمة على جناح بجعة مفروش، امرأة بعيون مثل عيون قطتها السيامية، امرأة تمسك بسلحفاة برقة.

كانت تلك السلحفاة صغيرة حتى أن رونات أجبرت على استخدام عدسة مكبرة لتفحص عينيها. دهشت حين وجدت نفسها في مواجهة نظرة السلحفاة الباردة الحاقدة. فكرت في البدء بالحيوانات السجينة، ثم بالحيوانات الطليقة، وأخيراً بالنساء والحيوانات اللاتي يعشن معاً في وئام.

كانت ترسم رافين(*)، فتاة بشعر أسود طويل وبشرة شاحبة

(*) ثمة لعب بالكلمات، الاسم يعني غراب. م.

تملك غراباً، ولدت رغبتها في امتلاك غراب في مرحلة مبكرة من حياتها حتى لم تعد تتذكر كيف ولدت، أمن قصائد إدجار ألن بو أو من نقش صغير ما زالت تحمله كما يحمل الآخرون صور أطفالهم.

لطالما اعتبرت نفسها لطيفة ومرنة جداً. بدا أن هذا الحلم بالغراب يعادل عناصر وجودها أيضاً.

أخبرت رونات «أجنحته السوداء، منقاره الحاد، مخالبه القوية تكامل ذاتي وتضيف شيئاً افتقده، تضيف عناصر الظلمة».

بحثت عن الغربان في حديقة الحيوان. قرأت أنها كانت مرة موضع تبجيل وخرافات، رمز الليل والجانب المظلم من ذواتنا. كما لاحظت أنها كانت ذكية لعوبة، وتعلمت لفظ الكلمات بصوت أجش جهوري مصدوع.

وجدت في سان فرنسيسكو مرة صحيفة فيها إعلان وضعته سيدة عجوز، غريبة الأطوار تجمع الطيور والحيوانات، أجبرت على العودة إلى أوروبا، وعندها غراب للبيع.

هرعت رافين لمقابلة غرابها. دفعت دفعة مقدماً وطلبت من السيدة الاحتفاظ به حتى تجد مكاناً مناسباً له. لكن قبل أن تتهيأ لذلك تلقت برقية تقول «يصل الغراب على خطوط TWA رقم الرحلة 6 الساعة 8 بعد ظهر اليوم».

صورة غرابها مسافر بطائرة في قفص من سان فرانسيسكو أذهلت رافين، إذ أنها توقعت منه أن يطير وحده.

عندما وجدته في صندوقه في المطار بدا مكسور العرف ومهاناً. كان جناحاه مضمومين إلى جسده كما لو أن الرحلة الجوية قد أصابته بعاهة دائمة. نظر بسخط إلى الطائرة كمنافس لا يستحق الذكر. نعق بأصوات غضب قاسية. أخذته رافين إلى البيت.

اضطرت لشراء قفص كبير، لكنها كانت سعيدة. شعرت أنها

حققت حلماً قديماً، أحست بالتكامل ونفسها. كان الغراب قليل البكم، جزءاً لا يطير من ذاتها قد يصبح الآن ظاهراً ومسموعاً وطائراً. أصبح جناحاه المفروشان على وسعهما والقويان، جناحيها. صار سواده سوادها، وتحرر الطفل اللطيف والطيع الذي كان عند رافين من صورته الضعيفة. شعرت أن الغراب قد أصبح جزءاً منها تريد التعبير عنه، ذاتٌ أقوى وأكثر سواداً واستقلالاً.

لاءمتها سخريته وتهكمه وشراسته. كانت امتداداً لرافين التي كان من الممكن أن تصبح أنانية مسلوبة الذات. لذا جلست على الأريكة الحمراء وهام غرابها في الحجرة، غراب الأساطير، النهم، سالب اللب، المغتصب والضاري. لكن رونات أحبته في كل أطواره.

ريشه الأسود غارق في زرقة سوداء براقة، عيناه حادتان ومخالبه ملتفة مرتين حول قضبان قفصه. حدق برونات التي حدقت به، نظرة سوداء مظلمة.

حلّت رافين القيد. توقعت رونات من الغراب أن يجثم على شعر رافين أو كتفها. أرادت أن يتشابك الشعر والجناحان، إلا أن رافين والغراب لم يُبديان أي ألفة. نقر بمنقاره الطويل أصابع قدمي رافين. ملأ صوته الأجش المبهم، كصوت رجل يجلي حنجرته بعد التدخين، الحجرة وهو يطير من المكان الذي يجثم عليه بسرعة الريح.

اعتبر الشباب الذين يزورون رافين الطير مصدر إزعاج وتحد وتنافس، اختبار لشجاعتهم ورجولتهم. لم يقدروا على التودد لها، والحلم بها أمامه. أرادوا استفزازه وإبعاده، كما لو كان بطريقة مبهمة يحرس رافين من ملاطفتهم. كان عقبة، جزءاً غريباً منها، يحكم مملكة لم يودوا معرفتها. حدق بعيونهم كما لو كان يفكر بهجوم.

سيطرت رافين عليه كمروض أسود، هازة صحيفة مطوية لإعادته إلى القفص، لكن رونات لاحظت أن رافين تستمتع بتراجعاته الغاضبة.

قالت رافين: «بعد أن روضته تركته حراً في الشقة. أردت أن أعرف إن كان حقاً يحبني وهل سيبقى معي. لذا فتحت النافذة. طار إلى سطح البيت المجاور. تفحص المزاريب، نقر بعض الأوراق الهائمة وعاد لي».

خطا الغراب بحرص شديد بين الأثاث الوثير، وآنية الزهور والتماثيل الصغيرة والقماش المذهب. لكن عندما فرش جناحيه وهزهما مرتجفاً بإيقاعات وذبذبات كان بإمكان المرء سماع ريح الجبال التي تعيش فيها الغربان، ويعجب كيف قَبِل الخضوع للأسر.

بأي لهفة نظر إلى رافين، شعرها وحاجباها تماثل جناحيه، لكن تبدوان أشد سمرة في تناقضهما مع بشرتها البيضاء كضوء القمر.

تأملت رافين، حين وقفت كعارضة ترسمها رونات، بلوحتها «سيدتنا والوحش». في وقت متأخر من بعد الظهر استلقت امرأة عارية مسلط عليها ضوء بجانب نمر. شع وجه النمر أكثر بفعل ضوء فوسفوري. كانا «الجميلة والوحش» بعد زواج طويل، ومتماثلين في الجمال. لكن لاحقاً، عندما حلت العتمة، كان وجه وجسد المرأة من راح يشع بضوء فوسفوري ذهبي، بينما أصبح النمر أكثر سواداً وإبهاماً. أخيراً اختفى في الليل، مخلفاً على قماش اللوحة نظرة عينيه الذهبيتين فقط. لقد تبادلا الأرواح.

رونات رسمت رافين واقفة عارية أمام مرآة. كان ظهرها مغطى بشعرها الأسود المتموج الكثيف، وانعكاسها في المرآة أصغر والبشرة أكثر شحوباً ويشوب حاجبيها ورموشها مسحة غبار فحم حجري. كان الغراب ينقر أطراف وشاحها المزركش، وجناحاه مضمومان كما لو أن الفتاة أصبحت أقوى من الغراب.

تشربت رونات سجية الليل والغموض والعنف الخفي.

وتشرب الغراب، الجالس على قدميها بأجنحة مضمومة، خجلها.

* * *

توقفت رونات أثناء قيادتها على طول كورنيش المحيط الهادىء عدة مرات لتعرض على رجل عجوز ذراعه مربوطة بعصابة مدلاة من عنقه توصيله إذ كان ذاهباً لعلاج يده في مكان قريب. رويداً، رويداً راح يروي لها قصته.

عاش في ماليبو، في مكان قريب من البحر كان الهنود يدعونه جبل هامبد، الذي لو غنيت اسمه بالفرنسية لبدا مثل البومة الشريرة - Mal Hibou، ماليبو.

في شبابه المبكر أصبح حارساً منقذاً على شاطىء ويل روجر. جلس على كرسي بارتفاع اثنتي عشر قدماً ليتفحص أحوال البحر. لم يكن بحاجة لمكتب أرصاد جوية. كان يعرف من كل تموج التواء حركة واندفاع للموج حالة البحر بالضبط، إن كانت غادرة بالسابحين أو وديعة مداعبة. عرف بشائر السحب وقرأ المستقبل في ألوانها وكثافتها. عرف سمات الرمال التي غمرها البحر كما لو أنه رسم خرائط أعماقها. دمج من مكانه صيحات النورس والأطفال والسابحين معاً ليصنع الصوت الذي أحب «موسيقى واقعية». لم يهتم قط بالكلمات. كان يعرف الساحل كله من شاطىء روجر إلى حيث أصبح ماليبو مقفراً معزولاً.

تزوج وأنجب أطفالاً، لكنه لم يشعر بالاستقرار في البيت. أضجرته الجدران الجامدة. لم يحب روائح المكان المغلق، والطهي والشمع، ولا صوت المكنسة الكهربائية. اشتاق إلى نسمات الريح وروائح توابل الشاطىء. شعر أن سكون الأشياء قد دفنه، المناظر

الطبيعية غير المتوافرة في الإطارات. ولم يمنحه سيل الكلمات التي تقولها زوجته وأطفاله حس الحيوية اللاسع كالسياط الذي شعر به على الشاطىء.

عاد إلى مهنته القديمة كحارس إنقاذ. لكنه صار يمكث كل يوم مدة أطول على الشاطىء الذي يحبه أكثر عندما يكون خالياً وحين يشرع في الذهاب صوب بيته على طول الساحل. اكتشف كنوز البحر الملقاة على صدوع الصخر التي إما ألقتها العواصف أو نبتت تلقائياً هناك: ليمون البحر الرطب غير المدمر، زنابق ماء البحر التي لا تقفل في الليل، عدس البحر المربوط إلى فاصوليا الأفعى العملاقة، شراب البحر شديد الملوحة، عشب البحر وطحلب البحر وخياره. لم يدر من قبل أن في البحر مثل هذه الحديقة السخية - ريش البحر، عنب البحر، شريط البحر، رئة البحر. في الصيف يظل هناك بعد حلول الظلام. تعلم الغوص وسرقة سرطان وجراد البحر من شباك الآخرين. طها عشاءه على الشاطىء ونادراً ما عاد إلى البيت.

كانت الصخور دائماً مليئة بمفاجآت حطام السفن والليالي بالأصوات التي يقودها إيقاع البحر المنتظم. تغلغلت الريح بين الصخور دون ترتيب مصارعة الأمواج حتى فناء أحدها. تسربلت السماء بمناظرها سريعة الزوال، مسرح بالغ الأهمية، ستائر هاربة، ديكورات للباليه، جبال جليد بحرية عائمة، مزاليج نسيج حريري شفاف عصية، أقراط من الذهب واللؤلؤ، لقالق ببياض المحار، أوشحة ساري هندي، ريش طائر، عنزات مجزوزة الوبر، عمارة هندسية في الثلج والقطن. كانت السحب مسرحه الذي لا يتكرر فيه المنظر نفسه أبداً.

على الأرض كان غريباً. الأرض بالنسبة له ثابتة وتشده إلى عدم الحركة التي هي صورة الموت في نظره.

نام ليلة في أحد الكهوف. فكر في سريرته: الآن أنا غرانق الماء(*).

كان يمضي الوقت في الكشف عن ارتجاف البحر الخفيف وتصادق مع قبرة البحر. جمع طحالب البحر وصنع منه سجادة كهفه. غير أن شيئاً بقي ناقصاً. كانت صداقة طيور النورس سريعة الزوال. زياراتها قصيرة جداً ودائماً تفتقر للصبر للتحليق في الفضاء.

سار في إحدى الليالي إلى نهاية الحاجز الصخري الطبيعي حيث وجد فوجاً من الفقمة. كانت تسبح وتغوص وتقوم بحركات بهلوانية، لكنها تزحف عائدة دائماً على الصخور لتتجب صغارها هناك. تبادلت القبلات ونبحت وقفزت ورقصت على أطرافها الخلفية الملتحمة جزئياً. كانت عيونها السوداء مثل المرايا العاكسة للبحر والسماء، غير أن الشكل المقوى مدبب الرأس لعيونها أضفى عليها سمة من الحنان، كما لو كانت ستبكي شفقة. لم تكن لذيولها نفع كبير باستثناء السباحة، لكنها أحبت هز أطرافها كالزعانف كما لو كانت على وشك الطيران. لمع فروها كالعقيق اليماني مع ظلال داكنة تحت الزعانف.

حيّت الرجل بصيحات الفرح. غير أنه كان هذه المرة عجوزاً. جعّد البحر وجهه بشكل معقد، ولقد كانت مفاجأة مدهشة حين بعثرت ابتسامته الخطوط لتشع عبرها مثل سمكة جميلة مصقولة خارجة من شبكة صيد.

أطعم العجوز جمع الفقمة وجلس قربها في الكهف. طها عشاءه، استدار جانباً ونام بإحساس جديد من الرفقة.

في إحدى الليالي جاء بعض الرجال. أرادوا صيد الفقمة لتقدم

(*) مخلوق بحري خرافي له جسد رجل وذيل سمكة. المورد.

عرضاً من الحركات البارعة في مسبح أمام مطعمهم كنوع من الدعاية لجذب الأطفال. غير أن الحوض كان صغيراً ومحاطاً بأسلاك شائكة. لم يود العجوز أن يحدثَ شيء من هذا لفقماته. لذا حذرها بتقليد صيحتها ونباحها، فغاصت بسرعة في البحر. بوصول الرجال إلى نهاية الحاجز، كانت الفقمات قد اختفت. من تلك اللحظة شعر العجوز بأنه حارسها، وليس بوسع أحد العبور إليها في الليل دون المرور بحجرة نومه. وبالرغم من رقص النقر للأمواج ودعوات الريح الغاوية كان العجوز يسمع خطوات الزوار الخطرة ويملك دائماً وقتاً لتحذير الفقمات بلغتها الخاصة.

اكتشف العجوز أسماء الفقمات التي كانت تجيب عند ندائها بأسماء هيلاريوس، أبنيزير، أمبروسيوس، اللالي وأبولو. لكنه لم يعرف اسم فقمة واحدة إذ كانت متقدمة في السن جداً عندما قابلها أول مرة. لم يملك العجوز الشجاعة لتجربة أسماء ليرى أيها قد تجيب عليه، لأن الفقمة كانت تتحرك بصعوبة وهذا قد يسبب في إهانتها.

في إحدى الشتاءات القاسية بدا القلق يساور أولاد العجوز لتقدمه في السن وإصابته بالروماتيزم. جاؤوا في يوم ماطر وأجبروه على الصعود في عربتهم وأخذوه إلى البيت حيث أعدوا له حجرة نوم.

نام في الليلة الأولى على فراش فوقع وكسرت ذراعه. ما أن شفيت حتى عاد إلى كهفه.

عندما شعر في ليلة برجة خفيفة في منطقة قلبه حسب أنه سيموت، لذا حاول الزحف إلى الفقمات، إلى الصدوع التي تنام فيها. لكنها أبعدته عن المكان بلطف ومحبة.

كان كثير الشبه بها، بشاربه وحواجبه المقوسة الكثة، ورموشه

المتهدلة وسعاله الشبيه بالنباح، حتى أنه ظن أنها ستساعده على الانزلاق من الصخور ليدفن في البحر مثل فقمة حقيقية.

* * *

حين لا تبيع رونات ما يكفي من اللوحات تعمل مضيفة في نزل باراديس. انتصب الملهى الليلي المشيد من الصخور والخشب عالياً فوق صخرة على الشاطىء. أضفت عليه أشجار النخيل والصبار مسحة من النعومة المدارية تناقضت وحدة الريح. كان الجلوس في الداخل قرب المدفأة الكبيرة والتأمل في البحر عبر النوافذ الضخمة أكثر متعة.

ارتدت رونات ثوباً أرجوانياً حاكته بنفسها فلم يتصف بانعدام شكل الأزياء الحديثة، بل التصق بتقاطيع جسدها الطبيعية كبشرة ثانية.

كانت دائماً في حركة، ملقية بشعرها الأسود الطويل بعيداً عن وجهها، أثناء تقدمها للترحيب بالنزلاء، وعندما تدير وجهها إلى البار كانت تبدو كأنها تدير كل آلية الحركة المشعة لإشباع الجوع وإطفاء الظمأ.

كانت فاتنة في حركات ترحيبها حتى أن الزبائن كانوا كثيراً ما يتوقفون عن الحديث والشراب لمشاهدتها، كأنها العرض الذي جاؤوا لمشاهدته. نظر الساقي إليها وهو يهز شرابه، وحدق فيها رئيس الطهاة العجوز من فوق حفرة فحمه، وغنى الموسيقيون لها ناظرين إليها من فوق أجنحة البيانو السوداء، وفكر المرء بالكلمة الفرنسية للمضيفة entraîneuse التي تعني يسحب ويفتن ليغويها لاحقاً.

بدت في أكلها وشربها وكلامها هامسة وهي تضع قائمة الطعام في يد الزبائن، كما لو كانت تعطيهم سر كل المباهج، وكثيراً

ما كانوا ينتحون جانباً لإفساح مكان لها يقولون: «رونات اجلسي وتناولي مشروباً معنا».

كما بقي المنشط، جالب الحيوية إلى الموائد الصامتة، طويلاً لإنارة الشموع.

وصلوا بأزياء متباينة، رسمية، معاطف صيفية وفراء وقفازات وقمصان رياضية وقمصان هاواي وريش الزينة في مجلة «هاربرز بازار» ونظارات سباقات السيارات الواقية، وخوذات الدرجات النارية وأحذية الرقص المنخفضة أو الأحذية العالية الجلدية. وصلوا متبرجين جداً برموش اصطناعية وشعر مستعار أو أشعث غير مصفف. لم يدهش أحد. كانت مستعمرة السينما وتحقيق الأفلام. بدا كما لو أنهم انتزعوا بضع حاجيات من محل الملابس: لحى، معاطف رجال عصابات، مجوهرات الممثلة الزائفة. بدت أساليب بيوتهم المختلطة المقتبسة من تقليد أساليب بلدان أخرى حين جردت من جوها الطبيعي كديكور مسرح.

لم يبد أن شيئاً ينتمي إليها بشكل عضوي، أن يوصم بهويتها لكن لم يتوقع أحد ذلك. حتى الرسامون والكتاب تنكروا في ملابس بزت حفلات أقنعة البندقية الراقصة. لحى الرجال الذين تحطمت سفنهم وعاشوا سنوات في جزر مهجورة، ملابس غير منسجمة من محلات رخيصة، فتيات بشعر غير مسرح، جوارب سوداء قطنية وعيون مدهونة بلون السل البنفسجي. أرادوا أن يبتعدوا في هذه الملابس عن السائد بالأسلوب المميز لتماثيل عرض الأزياء في واجهات محلات بيفرلي هيلز، لكنها أعطت انطباعاً بأنها مجرد ملابس أخرى واعية لذاتها ولا تمثل الحرية واللامبالاة. ارتدوها بإفراط، كما لو كانوا يعرضونها مثل مشهد بوهيمي مبالغ فيه يقول انظروا لي.

كانوا جميعاً متشوقين لشرب العلاج الذي سيذيب وينهي ملابس

التخفي ويحطم صدفة الوعي الذاتي، الشرب حتى تطفو الأعماق السفلية لطبيعتهم إلى السطح في حطام مخضل بالمياه وكلمات هشة وغضب حمضي لاذع، لبعثرت تماثيل الملابس التي قيدوا أنفسهم بها، لتحطيم التخفي.

«رونات» نادوا، ليس لأنهم جائعون أو عطشى، بل لأنها تعرف من كانت، ولأنها تعرف ذلك قد تقدر على التعرف عليهم بابتسامة وكلمة، مثلما قالت لبروس بابتسامة وكلمة «أنت شاعر».

كان على المائدة طعام وأقداح ممتلئة، لكن من كان جالساً هناك؟ هل تعرف رونات؟ كانوا على البحر ورونات أكثر من مجرد امرأة، كانت بوصلة. ما أربكهم لم يربكها. إن لم تجب على إشارتهم المقلقة، إذا تركتهم مرميين في الفراغ الذي يعيشون فيه، عندها لتأكيد وجودهم ينبغي أن يشرعوا في الشجار مع شخص ما، أي كان.

أصبحت الملامح موحلة وانهارت الواجهات. عندما كسر زجاج بدا لرونات كما لو أن ذلك دلالة على خطر وبداية دراما، كأن المطعم صار سفينة في البحر تخبطوا جميعاً في أمواجه الغاضبة. سقط الغرباء معاً وتصادموا في عراك مشوش بين أمواج جزر ومد الكحول.

أنا نجم، أنا مخرج، أنا مصور، أنا متزوج، أنا عندي ولدين، أنا اكتشفت بئر نفط، أنا شيدت بيتاً، أنا كتبت سيناريو فيلم، أنا ربحت أوسكار، أنا اشتريت حصاناً، أنا استأجرت مزرعة، أنا بدأت موضة صيد الخنزير البري، أنا عندي معرض رسم، أنا مبحر إلى أكابولكو.

غير أن أي من هذه لم يتحل بالقوة الكاملة التي ملكتها رونات عندما قالت «أنا رسامة».

ولد رسمها من الداخل كما لو كان ابنها تماماً، عضوياً كجزء من لحمها، في حين لم يتأكد اليائسون الذين تبنوا أطفالاً كيفما اتفق ليكونوا أبناءهم من الأبوة الأصيلة أو الواقع.

كانت هناك شخصية لم تؤسس في غفلة مثل طيار عديم الوزن في الفضاء، وكانت هذه ليونتاين التي تغني بمحاذاة البيانو.

كان شعرها مقصوصاً في خط مستقيم فوق العينين كالصبية، ومغموساً بوهج أحمر. بشرتها شوكولاتية شاحبة وعيناها سوداوان لامعتان، وأناملها طويلة حساسة عندما تملس رقبتها الطويلة كي تحس من أين يأتي الصوت، كما لو أنها تلاطف صفاءه، فيبعث منها شهداً ثقيلاً ودافئاً رقيقاً مثل الحرير تارة والصوف الزفير على الأدمة تارة أخرى.

ارتدت كنزة طويلة معصوبة بخطوط سوداء وبيضاء وياقة ذات قبة طويلة ضيقة تبرز طول رقبتها، وثوباً ضيقاً أضفى عليها مسحة وصيفة من القرون الوسطى.

ما أن انتهت من غنائها حتى انطلقت لاحتضان رونات:

«لم تعرفيني! أنا ليونتاين!».

«لقد تغيرت كثيراً» قالت رونات.

«هل تذكرين أول مرة تقابلنا فيها؟».

«طبعاً أذكر. كان ذلك في حفلة عيد رأس السنة التي أقامها كندالي. كنت في الخامسة عشرة وأنفك ظريف مرتفع...».

«غيرت ذلك من أجل المصورين» قالت ليونتاين.

«أذكرك ترقصين رقصات هايتي. كانت تلك سنتي الأولى في أمريكا. لم أكن قد شعرت بالاستقرار بعد. كانت أول مرة أقابل فيها وجوه مدينة نيويورك الجامدة. مسرحية يونانية بأقنعة. بدا أن كل

الوجوه الجامدة تقول: «نحن لا نعرفك، نحن لا نراك، نحن لا نحبك»، كانت حفلة رأس السنة تلك أول حفلة أحضرها في نيويورك، بكيت عندما رحب بي كندالي عند الباب بصوته الدافىء اللين وابتسامته المرحة وقال: «تفضلي، علقي معطفك» كما لو كان يعني ذلك ويخاطبني بشكل شخصي. كان ذلك أول ترحيب شخصي حميم ودود. ثم جئت ووضعت ذراعيك حولي وصحبتني لمقابلة والدك. كان رسمياً ومؤثراً، كما لو أنه منحوت من خشب ويتحلى بكل وقار ورسمية هايتي. كان شعره الفضي المتيبس قصيراً مثل شعر فرشاة صلبة، وفي الحال راح يروي لي قصة لن أنساها أبداً».

قالت ليونتاين «دائماً القصة نفسها عن شبابه في هايتي وأنشطته الثورية. كيف حكم بالسجن المؤبد وأرسل إلى جيانا وكيف قيد بسلسلة مع سجين آخر. عن الحر غير المحمول وسادية الحراس. مكان وظروف دريفوس(*) نفسها. كان في السابعة عشرة من عمره وحكم بالسجن المؤبد. نسيت كيف استطاعوا الهرب.

عملوا على ذلك مدة سنتين. خططوا بشكل جيد ووجدوا أنفسهم في الأدغال على بعد أميال من البحر حيث كان قارب فيه أصدقاء في انتظارهم. عاشوا على الفواكه وناموا في الكهوف وقرصتهم الحشرات. جعلت السلاسل التي تربطهم معاً الحركة صعبة، ولم يملكوا وسيلة لقطعها. كانت ثقيلة فلم يفلح حكها بحجر في قطعها. في اليوم الثالث شرب زميل أبي ماءً ملوثاً. في اليوم الرابع مات، فأصبح والدي مقيداً مع رجل ميت. أخبرت والدك آنذاك أني لا أريد سماع المزيد، إذ تضاربت قصته بعنف مع مرح حفلة رأس السنة الجارية حولنا. أقفلت أذني. كانت الحجرة تعج بالضحك ورقص الجاز. رحب بالعام الجديد بالمفرقعات النارية والصيحات والقبلات. جلس والدك منقبضاً دون أن يحركه كل ذلك المرح

(*) ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وحكم بالسجن المؤبد ونفي بتهمة باطلة. م.

وأكمل قصته. كيف حرر نفسه بقطع الذراع من الكتف بمطواة صغيرة. لكن كان عليه حمل الذراع الميتة طوال الطريق إلى القارب».

قالت ليونتاين: «مغطاة بالنمل. آسف إن بدوت قاسية، رونات، لكن والدي روى القصة عدة مرات حتى لم أعد أملك مزيداً من المشاعر إزاءها».

«كنت ترقصين رقصات هايتي. ألم تعودي ترقصين؟».

«كنت أكسل من أن أصبح راقصة، وأكره التدريب، لذا امتهنت الغناء عوض ذلك، وكان ذلك أمراً طبيعياً لم يتطلب كثيراً من الانضباط».

«وما حدث لكل أمنياتك؟ أردت حياة مثل جوزفين بيكر. أردت العيش في فرنسا والاقتران بكونت فرنسي وامتلاك قصر في مراكش».

«سافرت بالفعل مع كاترين دونهام. وصلت إلى فرنسا ووجدت كونتاً فرنسياً. لم يكن وسيماً، لكنه كان طويل القامة أشقر الشعر. ظن أني لست ذكية لذا ابتكر لغة خاصة بي، نصف لغة أطفال ونصف لغة قردة. حسب أني أفهمها أفضل. استدعاني مرة إلى أوتيل دو كريللون وهو يرتدي زياً عربياً وسخاً مزرياً كما لو كان قد نام فيه أسابيع عدة. كان المدير يقوم بالترفيه عن أفراد السلالات الملكية العربية. أراد رجال الأمن السري اعتقاله، ثم وجدوا أنه ابن نائب. في مرة أخرى استأجر لي شقة جميلة دون أثاث. ثم أقام حفلة على شرفي. مرحنا بثياب الرقص والمجوهرات. قطعة مجوهرات رائعة استعارها من أمه التي أبلغت الشرطة. لم يخبرني أبداً من أين جلبها. لبستها في النادي الليلي، فجاءت الشرطة السرية إلى حجرة تغيير ملابسي. كان عليه أن يفسر من أين جلبها. مرة أخرى جلسنا ساعات في مقهى مزدحم نتبادل الإهانات. صُدِمَ المهتمون بالمساواة العرقية لما قاله وأرادوا التدخل إلى أن سمعوا ما قلته

له. أخبرني في مرة أخرى أن أرتدي أجمل ثوب عندي لأننا ذاهبان إلى مطعم مكسيم. تركني جالسة وذهب إلى حجرة الإيداع لوضع معطفه. كان يرتدي بزة رسمية فوق ثياب الرقص. أصر على اصطحابي إلى الرقص ولأن والده كان نائباً لم يتدخل أحد. شعرت مرة بنوبة غضب وغيرة في بار ريتز فرحت أحطم الكؤوس. استدعى الكونت كبير الخدم وقال: «اجلب لي طبقاً عليه دستة من أفضل كؤوسكم. إذا أرادت السيدة تكسير الكؤوس ينبغي أن تكون من أفضل الأنواع». أحرجني هذا كثيراً لدرجة أني تركت المكان. كانت له دائماً الكلمة الأخيرة ويربح دائماً ويستمتع بذلك. نشر إشاعة مفادها أني أخاف السيارات، لذا جعلني أتنقل على ظهور الخيل وفي العربات، وأصر عليَّ أن ارتدي الجينز أثناء ذلك. كان ذلك عندما استوقفني رجل وقال «لابد أنك ليونتاين، أنا كوكتو». لم يكن الأمر مع الكونت رغبة جسدية بل ذهنية. كلانا كان لامعقولاً. كلا، لم يتزوجني ولم أعش قط في قصر في مراكش، غير أنه أضحكني ثلاث سنوات ونصف».

قالت رونات: «أذكر أمك أيضاً. كانت تعمل في مصنع يحشو حيوانات صوفية بالنشارة. هرّبت أفضلها لك، دببة وجمال وحمير. وقلقت لافتتانك بابن عمك الذي كان أكثر بياضاً منك. كانت تخشى أن يستغلك ولا يتزوجك. طلبت مني أن أعرف ما يجري، وأنا لم أود أن أتطفل. لذا عملت تمثيلية تقومين فيها بأداء دور امرأة مارست الحب، وكانت أصوات التودد والمحبة التي أطلقتها واقعية جداً فعرفت أن هناك ما يبرر مخاوف أمك».

«أذكر اليوم الذي جئت فيه لأخذك إلى الشاطىء. وجدتك تستحمين في الشاي لخجلك من بياض بشرتك».

«كما أذكر اليوم الذي ذكرت فيه حفلة هايتي الوطنية التي كنت ذاهبة لحضورها وقلت إنك تودين الذهاب أيضاً. نظرت إليَّ وقلت:

رونات، البيض غير مدعوين». ضحكت ليونتاين ورنت أقراطها الذهبية الطويلة وكذلك أساورها وسلسلة الخرز الطويلة وأضاء كشاف النور عينيها وابتسامتها. عادت إلى البيانو لتغني لرونات التي لم تجد أثراً للفتاة الصغيرة ذات الخصلات المجعدة والأنف المرتفع، التي تعزف في شوارع بروكلين مع الأسود والكانجارو والقرود المحشوة التي تخيطها أمها في مصنع قريب يشبه السجن.

كان هنري، رئيس الطهاة، ابن اسكوفيير الشهير بالتبني. لم يدر أحد لماذا استقر في نزل باراديس، في مطبخ بدت فيه مقالي النحاس والأباريق التاريخية مثل أواني مارد. علقها على الجدار وجعل النحاس يشع كالمرايا التي بمقدوره أن يقرأ فيها ماضيه الرائع وانتصاراته.

كان هنري طويل القامة، لكنه كاد بقلنسوة رئيس الطهاة أن يلمس السقف. كما كان ممتلئاً بسخاء الطعام الوفير وعليه أن يرفع بطنه الضخم عندما يتحرك بين اللوح المنحوت والموقد.

أراد من الضيوف أن يسمعوا حكاياته عندما كان ينتهي من الطهي. وقد يجلب في آخر المساء ورداً صغيراً إلى السيدات وقصصاً كثيرة من حياته الشخصية.

كل من طها لهم كانوا يحملون أسماء شهيرة من الملكة فيكتوريا إلى دايموند جيم برادي. وصفهم في ديكور من ثريات الكريستال وضوء الشموع وقماش الموائد المزركش. وقام على خدمتهم جيش من المساعدين. تذكر بالضبط عبارات الإطراء التي تلقاها من الملوك والممثلين المشهورين وسيدات المجتمع وأخيراً من ملوك المال ورجال العصابات ورجال الأعمال الديكتاتوريين.

كان موهوباً في المطبخ منذ نعومة أظافره، ولاحقاً ديكتاتوراً يسيطر على اختراعاته المطبخية.

بدا شكله الضخم ووجهه الأحمر مكوناً من كل الطيبات التي طهاها، صلصة وتوابل ونبيذ.

كانت كل قصص أطباقه قديمة عتيقة. اخترع فطيرة للأمير إدوارد، وشرائح لحم مشوية على الفحم الحجري لدايموند جيم برادي.

بدا وقد أذهله الماضي قصير النظر لرؤية مشاهير هذه الأيام. لعله شعر أنه لعب دوراً مهماً في الماضي، وأن الزبائن الذين يأتون الآن يشهدون على تقدمه في السن. كان بإمكان ولائم العشاء التي يعدها مرة أن تؤثر على جو مناقشة سياسية وعلى التاريخ، أو تقرير مصير علاقة غرامية.

ربما شعر بالامتعاض للإقرار بوجود من سيكون مشهوراً في المستقبل بين من يتناولون العشاء وقد يدخل منطقة براقة مماثلة، وإن كانت منطقة لا يود أن يكون فيها ليقدم الطعام.

ولما كان قد جاوز الثمانين فإن كثيراً من حكاياته كانت تنتهي بخطب جنائزية، وبدا حبه العابر، المصحوب بقائمة من الراحلين، مثل إحراق جثث الموتى.

كانت لديه رغبتان: واحدة لفن الطهي وأخرى للمشاهير الذين استمتعوا بطهوه.

في فن الطهي كان مغرماً بالكمال، وقد يستغرقه إعداد صلصة عدة أيام. كان يشتري مستلزماته بنفسه وأعلن حرباً متواصلة على كل الطعام الاصطناعي والمثلج والمعلب.

لكن في الأسماء لم يصبه الغرور. لم يشكك في اسم شهير. أحب الألقاب والأوسمة ورابحي الجوائز والمحبوبين في الدعاية.

استحوذت عليه في أوروبا النوعية، وفي أمريكا الضخامة. أصبحت ولائمه أضخم بحيث صار على الزوار المشي أو الرقص أو السباحة بين تقديم الأطباق.

أخذ زبائنه في رحلة إليزيه(*) من المذاق اللذيذ. واسترسلت حكاياته مثل أكثر صلصة رائعة.

ولما كان مهتماً بالأطباق كما الشخصيات، أطلق عليها أسماء بشر قابلهم. حلوى فراولة كارول لومبارد، فرشاة أيروين إس. كوب العارية، محار جورج إيستمان المشوي، توتي فروتي إدنا مي أوليفر.

هل كان لهذه الشخصيات مذاق ترجمه إلى طعام لذيذ؟ هل كانت جريتا جاربو مثل طبق محضر بالكحول ويوليوس بلومفيلد مثل حساء الخضرة الروسية؟ هل كان وليم فاندربيلت كريماً فرنسياً؟ ومارلين ديتريتش رمانة الحب؟ هل كان هنري جيمس وحده القادر على إثارة شيريد إجز، وساره ديلانو روزفلت تفاح القرفة، وهل يستحق شارلز هاكيت ثريداً؟

لكن المشروبات لم تعمد بأسماء البشر. إذ أنها تستحق حمل أسماء لامعقولة مثل العدالة والحرية والشجاعة والديمقراطية.

في الأيام المبكرة لبدايته الشاقة في نيويورك كان يحمل معه كل ليلة زجاجات شاتو دايكوم الفارغة التي احتفظت برائحتها وينام على مقعد في محطة لونج أيلاند واضعاً القارورة على أنفه لتجعله يحلم ثانية بالأيام التي كان يخدم فيها العائلات الملكية في الريفيرا الفرنسية، وحيث اعتقل بتهمة السكر والتشرد.

جلس في إحدى الليالي في مطبخ نزل بارادايس مثل خبز منفوخ لم يخبز جيداً. كان الوقت متأخراً ويتناول قليلاً من العشاء الذي طهاه. رأته رونات وابتسمت له من فتحة القاطع. كان يتكلم مع نفسه مدمدماً. سألته رونات «هل هناك ما يزعجك؟».

قال هنري: «فقد الناس حاسة الذوق. كل ما يقولونه اجلب

(*) نسبة إلى قصر الإليزيه الباريسي. م.

المزيد. كل ذلك بسبب حفلات الكوكتيل الملتهبة تلك. لقد قتلت الذوق. ثم لا يقولون قط الشيء المناسب الذي يملؤني بالإطراء مثل خبز منتفخ. المديح يجعلني أطهو الطعام كل يوم بشكل أفضل».

قالت رونات «لم يفقدوا حاسة ذوقهم، بل ألسنتهم. لم يفقدوا القدرة على تقدير طهيك. ما فقدوه هو قوة الكلمات. لم يتعلموا قط لغة الطهي. نحن نعيش في عصر أساسيات اللغة الإنجليزية(*)».

«الأساسيات، الأساسيات. ما هو أساسي أكثر من الطهي الممتاز. أنت تغرينني، لكني ما زلت بحاجة إلى الكلمات، تعرفين كما يحتاج الممثلون إلى التصفيق».

«لقد أصبحت الكلمات نادرة. هل سبب هذا تفكيرك دائماً بالماضي؟ وعليه مَنْ الأفضل؟».

«نعم، الناس تملك تقديراً أدبياً للطهي، يمكنهم وصف حساسياتهم وهم فصحاء في ذلك. هنري المسكين. لقد رأى عديداً من المقاعد الخالية. الناس الذين يأتون الآن من نوعية مختلفة. إنهم متجهمون ونصف بكم. يقولون «هذا جيد يا هنري» لكن ما مدى الجودة، وكيف يمكن مقارنتها بالوصفات الأخرى. ثمة فوارق كثيرة لا تكاد أن تدرك!».

«اللغة فقط من أصابها الفقر».

«قد تكونين على صواب. هل أخبرتك عن دايمون جيم برادي والمحار الإثنتي عشرة؟ طلب مني مرة أن أقدم له إثنتي عشرة محارة وأضع في كل واحدة لؤلؤة. وكان قد دعا إثنتي عشرة فتاة من زيجفيلد. أراد مني أن أقدم أفضل ما عندي من مهارة. عندما حضرت المحار لاحظت أن هناك إحدى عشرة لؤلؤة فقط. قلقت جداً واتصلت به، قال: لا تقلق هنري. هذا مقصود. الفتاة التي لن تجد

(*) المعروف أن أساسيات اللغة الإنجليزية لا تتجاوز 850 كلمة فقط. م.

لؤلؤة في محارتها سأعرض عليها الزواج، وأنت ستعلنه. لم يكن بوسعي إعلان سخافة مثل عرض زواج. لم يكن بمقدوري نطق هذه الكلمة».

* * *

عاش فاردا في مركب نقل نهري قابل للتحويل في سوسوليتو وأبحر في الخليج بقاربه الشراعي، لذا كان وصوله إلى نزل بارادايس في شاحنة صغيرة لجلب صوره المجمعة للعرض مستغرباً: «الصور المجمعة ليست رحلة بحرية».

أفرغ حمولته قرب المدخل وأسندها على الضفاف الصخرية تحت أشعة الشمس. بزت الشمس والبحر والكواكب وجعلت الألوان الزرقاء المصفحة انكسار أضواء المحيط باهتة، فبدت النباتات مضجرة مبهمة. تذبذبت ألوانه الخضراء الثلاثية وجعلت النبات يبدو ميتاً والأزهار مصطنعة. كما جعلت أعمدته الذهبية خيوط أشعة الشمس شاحبة.

بقطع قطن وحرير صغيرة ومقصات وصمغ ومسحة دهان، سربل نساءه بإشعاعات وتنفست ألوانه كلحم الجسد ونبضت الخيوط المغزولة برقة كالأعصاب.

في المناظر الطبيعية لمرحه أمست النساء زهوراً ملقحة والزهور نساء. تحلت بعبير كما لو رسمت بالزعتر والزعفران والكاري. كانت نصف شفافة وطليقة تحمل في ثناياها مدن ألف ليلة خاصة بها كأوشحة غائمة حول رقاب نسائها الشفافة كالزجاج.

كن أحياناً مقنعات كجميلات البندقية في الحفلات التنكرية. ولبسن عقوداً أو شهباً شمسية، وأقراطاً تشدو كالطيور. غطت التويجات المخملية نهودهن وحدقن بعيون غاوية. لعبت تدرجات

الألوان البرتقالية كعزف نغمات مزمار. كان للأحمر الأرجواني صوت قرع النواقيس، والأزرق يخفق كما الليل.

بعد أن لمسهن مقصه أصبحت نساؤه زهوراً ونباتات وأصدافاً بحرية.

قص كل قماش أسطوري في العالم: دمسقي المديتشي(*)، أردية يونانية بيضاء - محارية، قماش البندقية المزركش بخليط من الخطوط الذهبية والزرقاء، أصداف بيرو الزرقاء نصف الليلية، ألوان رملية كالقطن الأفريقي والموسلين الهندي الشفاف كي تولد النساء اللاتي يظهرن للرجال النائمين فقط. أصبحت نساؤه مذنبات في النظام الشمسي. قدم القشرة الفضية الخاصة بطباع حوريات البحر فقط، ووردة صدفة البحر لشحمة الأذن، تويجات وأعضاء التأنيث في النبات الخفيف كأجنحة. أسكنها في واجهات خيام يمكن نصبها للحظات وطيها وإخفاؤها عند الانتهاء منها.

قال فاردا «لا شيء يبقى إلا إذا تحول إلى أسطورة أولاً، وميزة الأساطير العظمى أنها سيدات بجذور متنقلة».

كثيراً ما تكلم عن الجنة. كانت الجنة اختزالاً لنساء بسمات سريعة الزوال. تعلمنا صوره المجمعة كيفية البقاء في حالة جمال الحب، تستخلص إكسير الحياة فقط، تحول كل الحياة إلى أعياد قمرشمسية، وكل النساء بعملية بتر إلى عقار مقوٍ للجنس.

كان الكيماوي الباحث عما يمكنه التحول إلى ذهب فقط. لم يصور قط نساءً غيورات أو نساءً فاترات. غمس فرشاته في غبار الطلع والصمت وشهور العسل، وكانت نساؤه متغيرات متحركات.

سمح للفضاء والهواء التغلغل في أجسادهن كي لا يصبحن بالغات الثقل، أو يمكثن أطول مما ينبغي. لم يصور قط موت الحب

(*) عائلة فلورنسية اشتهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. م.

أو التعب والملل. كانت كل صورة مجمعة غنية بحريم جدد، جَلَدُ الوهم، ووفاء مولد النساء النشط الخفيف.

لم يملك وقتاً للعويل على الأشياء الذاوية والفانية. مزج دائماً خليطاً جديداً، امرأة جديدة وعندما جلس خلف طاولته الكبيرة ومقص في يده باحثاً عن تزاوج جديد للألوان وتنويعات من المثلثات والمربعات وأنصاف الدوائر، في شبكة متداخلة من القبب والصدور، السيقان والأعمدة، النوافذ والعيون على أسرة المتعة، تحت خيام طقوس الجسد، أصبح كل لون صندوق موسيقى.

قدس نساءه وحملهن أسماء علامات جديدة للقدسية.

القديس بانلتي - المبتذل - (*) الذي تحكم بالفنانين القادرين على أخذ أمور الحياة اليومية وتحويلها إلى أشياء غير عادية، مثل ساعي البريد في فرنسا الذي شيد قلعة من حجارة وجدها في طريقه كل يوم، وماسح الأحذية في بروكلين الذي زين صندوقه بالأوسمة والأقراط التي لا مثيل لها، والزجاج المكسر والورق الفضي الشبيه بالتاج البيزنطي، البنّاء الذي بنى أبراجاً من الأقداح المكسرة والبلاط وغلايات الشاي ومغاسل الجدران في لوس أنجلوس.

وهناك القديس بيرفيدا - الغادر - الذي عرف كيف يحطم رتابة الإيمان، والقديس بارابولا - الطبق المستدير - الذي زين بالهالات أولئك الذين لا يمكن فهم قصصهم، والقديس هايبر بول من كان يشفي من الملل. ثم وصل القديس كورونا - الإكليل - عند الشروق كي يوقظه، وزاره القديس إيروتيكا - الشبقي - في الليل.

تداخلت النساء القابلات للتبدل في بعضهن بعضاً كما في الأحلام. استقبلهن وأحبهن جميعاً باستثناء النساء المسربلات في

(*) ينبغي ملاحظة معاني أسماء القديسين الوهميين، وضرورة ترجمتها. م.

السواد. قال إن «الأسود للأرامل، للنساء القاسيات اللاتي ربينه في اليونان، للنساء في الكنائس والمقابر. مثل الأسود غياب اللون».

رأى النساء كالريش والفراء والشهب وأشرطة الزينة وأبراج الكنائس وصناعة التخريم، وعليه دهش أكثر من الآباء الآخرين حين وجد ابنته مصنوعة من مواد كدمية عديمة الألوان ملقاة داخل صندوق ساحر، لم تكن عيناها بتلك الزرقة ولا الشعر ذهبياً كأنها الوحيدة التي غفل رسمها.

شعر عندما كانت في السادسة من عمرها أن هناك وقتاً لرسمها حيث إنه لم يرسم الأطفال بعد وموهبته لرسم النساء قد تصبح ذات تأثير يوم تمسي امرأة. في سن السابعة استمعت إلى قصصه وصدقتها. أحس أن الإشراق وريش الطائر قد يكبرن بالصبر.

جاءت امرأة قوية طويلة القامة لزيارة فاردا، شاعت همسات بأنها خليلة رجل عصابات. عندما رأت ابنة فاردا قالت «فاردا، هل تمانع إن خطفت ابنتك يوماً؟».

أرعبها ذلك وكانت تسأل كل ليلة قبل ذهابها للنوم: «لن تأتي لاختطافي وأنا نائمة، أليس كذلك؟».

قال فاردا «كلا، لن تقدر على أخذك دون موافقتي، وأنا لن أدعها. لقد حاولت رشوتي. جاءت هذا الصباح في قارب محمل بأكياس السكر والفاكهة (وأنت تعرفين كم أحبها) لمقايضتك بها، قلت: كلا، أنا أحب ابنتي وبإمكانك أخذ سكرك وفاكهتك».

في الليلة التالية عند موعد النوم قال فاردا: «اليوم جاءت الخاطفة مع مئة زجاجة نبيذ أحمر (وأنت تعرفين كم أحب النبيذ) أخبرتها بأنني أحب ابنتي ولا أريد أياً من نبيذها».

في المساء التالي أخبرها: «كانت هنا مع مئة فيل (وأنت تعرفين كم أحب الفيلة) لكنني رفضتها».

انتظرت كل يوم إثباتاً جديداً لمحبة والدها لها. رفض في أحد الأيام مئة جمل تركت بعد تصوير فيلم، ثم مئة كيس ألوان رسم (وهي تعرف كم يحب فاردا الألوان) ثم مئة كيس من قطع القماش لصوره المجمعة، قطع جميلة من كل أنحاء العالم (وهي تعرف كم يحب القماش).

ثم قال فاردا في إحدى الأمسيات: «فكرت الخاطفة في أكثر العروض شيطانية. ماذا تظنين كان ذلك؟ عندها مئة فتاة صغيرة، مثلك بالضبط، بعيون زرقاء وشعر أشقر وأجساد رشيقة مرنة، وكلهن يصلحن لأن يكن حريماً. مرة أخرى (ومع أني أغويت إلى حد بعيد) قلت: كلا، أحب ابنتي أكثر منهن جميعاً».

لكن رغم قصصه قررت أن تصبح مختلفة عن كل النساء اللاتي أحبهن. تركت شعرها على حاله ولم تسرحه قط ليظهر لمعانه. ارتدت سروال جينز باهتاً وحذاءً رياضياً أملس. قطعت أطراف سروالها كي تبدو مثل سراويل الشحاذين في المسرح. لبست قمصان فاردا الممزقة وكنزاته المهملة وواعدت صبية أكثر منها عناداً وصمتاً.

في عيد ميلادها الخامس عشر، عندما توقع أن تتغير بشكل مدهش كفراشة، كتبت له رسالة تأنيب من المدرسة تطلب فيها أن يترك «تلك النساء» وقالت إنها لن تبقى معه بينما تلك النساء المبهرجات المتألقات يحمن حوله.

شكت بشعوذته في استخدام الكلمات، كما لو كان ساحراً في مسرح، وكأنها تقول: «انظر، ليست لهذه الكلمات من تأثير عليَّ. أنا لا أؤمن بقصص الجنيات الخرافية. سأدرس العلوم».

يوم جاءت في إجازة أخبرها فاردا قصة أخرى: «كانت هناك امرأة من ألبانيا اشتهرت بجمالها. جاء رجل شاب وسيم نحيل وأشقر من أمريكا ولاطفها بقوله: «أحبك لأنك تذكريني بابنة عمي

التي أحببتها عندما كنت في المدرسة. كما تذكريني بممثلة سينمائية عبدتها على الشاشة. أحبك، هل تقبليني زوجاً؟» أخذت الفتاة الألبانية مسدساً من حذائها العالي وأطلقت عليه النار. استمع القاضي الألباني العجوز لدفاعها عن نفسها في المحكمة بتعاطف «سماحة القاضي، لقد أهنت في حياتي عدة مرات». سأل القاضي «كيف وأنت امرأة جميلة؟».

«نعم سيدي، هذا ما حدث. أهانني رجل أول مرة عندما تركني أنتظر في الكنيسة في حفل زفافنا. صحيح أنه تعرض لحادث سيارة، لكن في عائلتنا ثمة تقاليد كياسة ثابتة تتعلق بمراسيم الزفاف. في المرة الثانية قال لي شرطي يركب دراجة نارية أنني كنت مسرعة. عندما اعترضت قال إنه قاس سرعتي. تصور ذلك. لكن يا سماحة القاضي لم أقتل أحداً من قبل حتى جاء هذا الأمريكي وقال إني أشبه امرأتين، أنت تعرف كبرياء الألبان، هذا سيدي كان فوق طاقة تحملي، لقد أهان تفردي».

هزت الابنة كتفيها وقالت: «النساء في ألبانيا لا يحملن مسدسات في أحذيتهن العالية. ومن يريد أن يكون متفرداً على أي حال؟ إنها فكرة قديمة».

حاول، عندما انتقدت الرسم الحديث، أن يشرح وضع الرسم في هذه الأيام.

«كان هناك فنان طُلب منه أن يرسل أفضل لوحاته إلى معرض. قَبِل شريطة أن تبقى مغطاة حتى يوم الافتتاح. وافقوا على طلبه. حضر حشد كبير. كانت لوحته الوحيدة المخفية وراء ستارة في صندوق ووضعت في آخر المعرض. حين رفعت الستارة أخيراً كانت اللوحة ضخمة مربعة ولا رسم عليها بتاتاً. كانت خالية! غضب الجمهور وتعالت صيحات الإهانات «سيريالي! دادي! بيتنيك!» تقدم الفنان وقال مفسراً إنه رسم صورته الشخصية، ولما وجد كلبه الشبه به كبيراً لعقها كلها. لكن هناك صورة شخصية وهذا مجرد

دليل على أمانة الشبه. وهكذا يا ابنتي العزيزة كان الحكم على الفن بالنسبة للمهتمين بالتقدم قبل عشرين سنة مقتصراً على النقاد، أما اليوم فتحكم عليه الكلاب. هذه حالة الرسم اليوم».

كانت عند فاردا نظرية حول فظاظة سلوك ابنته كثيراً ما قالها في حضور زوارها المتجهمين.

«هذه نسخة عصرية من الأميرة والتنين. اليوم قد تصبح ملكة الوادي الإمبراطوري للخس والشاب الذي يمكن أن يكون أي فرد سواك. كان المطلوب قتل التنين قبل أن يستطيع الشاب الزواج من الفتاة. كان جلد التنين مجعداً أزرق وفضياً كثير الحراشف مثل مرآة مهشمة إلى ألف قطعة صغيرة. بكت عيناه باستمرار ونفث النار بانتظام قداحة. أقفل الشاب الغاز أولاً ثم قطع رأس التنين. أمسك بذراع ملكة الجمال بجفاف ودفعها أمامه قائلاً على طريقة همفري بوغارد في الكلام «هيا، لقد ضيعنا وقتاً طويلاً مع التنين العجوز. حجزت حجرة في نزل على الطريق وهي تنتظر». نظرت الملكة إلى التنين الميت باكية على فراقه، ثم فجأة وضعت ذراعيها حوله وقالت: «سأبقى معه. لا أحب النبرة القاسية لصوتك». أثناء احتضانها التنين كثير الحراشف، تحول إلى شاب أكثر وسامة ولطفاً من الذي نبذته».

هزت ابنته كتفيها ونفخت علكتها البنفسجية التي لم يجربها فاردا طوال حياته، ثم عدت نمشها الجديد وعادت إلى واجب العلوم.

كانت تمضغ طرف قلمها الرصاص وهي تدرس مادة كيماوية تنتج خيالات وهذياناً. قرأت لوالدها بصوت منخفض غير واضح تأثير مواد توسيع الشعور.

«تظهر الألوان وتبعث الضوء».

«لكن ألواني تفعل ذلك» قال فاردا.

«تذيب الأشكال في بعضها بعضاً وتظهر أحياناً شفافة».

«كما يحدث في صوري المجمعة» قال فاردا.

«رأى أحدهم سحباً وشموساً وأقماراً تدور». قرأت بالصوت نفسه الذي تقرأ فيه «أنتج الوادي الإمبراطوري 20000 رأس من الخس».

«مثلما في لوحة فان غوخ. ما نفع العقاقير الكيماوية» قال فاردا.

«لكن حين تأخذ عقاراً كيماوياً تعرف أنها ستؤثر عليك بضع ساعات فقط، ثم تعود إلى طبيعتك. مادة يمكنك التحكم بها، وتعديلها وحتى إبطال مفعولها إذا أردت ولم تحب ما تحدثه لك».

قال فاردا: «بعبارة أخرى، تذكرة عودة».

«في اليوم التالي يعود العالم إلى مكانه الأول، وتعود الألوان الحقيقية».

«ألا يثبت هذا أنك عندما تزيل شعوراً مكبوتاً وتدع الناس يحلمون، سيحلمون جميعاً كالرسامين والشعراء؟».

«لكنك تحلم طوال الوقت، بينما حبة الدواء أكثر علمية».

قد ينور العلم طفلته الحريصة. وربما تستجيب بوساطة مادة كيماوية وتهتز وتسطع! راقب الرموش المتهدلة كالظلال والأذنين المغطين بالشعر والشفاه شحيحة الكلمات.

«ما الذي استوعبه عبر السنين وفتح له عوالم يبحث الآخرون عنها في نبات الفقع؟ أين تعلم سر الوميض الفوسفوري والإضاءة وتغيير الأشكال؟ أين تعلم أخذ المواد البالية والارتقاء بها بألوان وتغيير الشكل بالمقص؟

«ما أردت أن أعلمك إياه موجود في صفحة واحدة في

القاموس. إنها كل الكلمات التي تبدأ بزيادة مقطع «تغيير» في بدايتها... عندما كنت في العاشرة ابتدعت أول قصصي».

«سأتأخر على محاضرة توسيع الشعور!».

«هذه قصة قصيرة حول رجل عجوز كفيف تصف له ابنته كل يوم العالم الذي يعيش فيه، من يأتي لزيارتهم، جمال بيتهم والحديقة والأصدقاء. في أحد الأيام جاء طبيب وشفى بصره. اكتشف عندما أصبح أن بإمكانه أن يرى أنه كان يعيش في كوخ في منطقة خالية مليئة بالمخلفات، وأن أصدقاءهم كانوا من المتشردين والسكارى. كانت ابنته تبكي وتفكر أنه قد يموت من هول الصدمة، غير أن رد فعله كان مناقضاً لذلك. قال لها: صحيح أن العالم الذي وصفته غير موجود، لكن في رسمك الصورة بدقة في ذهني ولأني ما زلت أراها بتلك النضارة، يمكننا الآن البدء في بنائها كما رسمتها لي».

بقيت ابنته محايدة وصامتة مثل حذائها المطاطي الرياضي. رفعت ساقيها الطويلتين على حافة المركب ومرجحتهما كصبي وشرّحت الحلزون.

قال فاردا: «يا للقسوة والبشاعة!».

«إطلاقاً لأنها لا تملك جهازاً عصبياً» قالت بعنجهية عالم حديث العهد.

استمر فاردا في تلك الغضون في عمل الصور المجمعة كما تضيء بعض النساء شموع النذر. بمقص ولاصق وقطع صغيرة داوم على ابتكار النساء المتألقات الفاتنات السابحات في الهواء والمتوجات بالهالات المضيئة مثل قديسات. غير أن ابنته قاومت كل جرعات والدها، كما لو أنها قررت من يوم ولادتها أن لا تصبح واحدة من النساء اللاتي يقصهن في أشكال دائرية ومثلثات ومكعبات تلائم الأشكال المتغيرة التي يريدها.

ثم كتبت يوماً الرسالة التالية لفاردا بعد غياب دام عدة أيام:

«قبل أن أتعاطى العقار المدعو L.S.D بدا كما لو أن النور واللون والرائحة وحاسة اللمس غير قادرة على اللحاق بالحالة التي وصلت إليها. كما لو كنت في الخارج وأنظر عبر الزجاج. لكن في ذلك اليوم (أظن أنها كانت المرة الثانية) دلفت أخيراً إلى الداخل. نظرت إلى السجادة الصغيرة المفروشة على الأرض فلم تعد مجرد سجادة عادية، بل كتلة متحركة متأرجحة كشعر يطفو على الماء أو ريح فوق حقل حنطة. لم يعد مقبض الباب مجرد مقبض. ذاب وتموج ففتح الباب واختفت الجدران والنوافذ كلها. كانت هناك رعشة حياة في كل شيء. الأشياء الجامدة كلها في الحجرة انسابت في عالم سائل متحرك حي. ضياء الشمس تضاعف وتعاظمت كل ذرة من الذهب والماس. بدأت الأشجار والسماوات والسحب وحدائق البيوت الأمامية والخلفية تتنفس بالحياة، ترتفع وتتمايل كمنظر طبيعي في قعر البحر. كان جسمي يعوم ويطير. شعرت بأني مبتهجة مرتاحة لعوب، وثمة اتصال مثالي بين جسدي وكل ما يحيط بي. تضاعف تغريد الطيور وأصبح غابة كاملة من الطيور الصادحة. تضاعفت حواسي وأصبحت كمن له مئة عين ومئة أذن ومئة رأس إصبع. ظهرت على الجدران جدارية بلا نهاية صممتها وتعزف موسيقاها الخاصة المنسجمة والرسم. عندما رسمت خط برتقالة طويل بعث نغمته البرتقالية الخاصة. تذبذبت الموسيقى في كل جسدي كأني واحدة من آلات العزف، وأحسست بأنني أصبحت أوركسترا كاملة من آلات النقر. صرت خضراء وزرقاء وبرتقالية وذهبية. سرت أمواج الصوت في شعري كلمسة، والموسيقى في ظهري حتى خرجت من رؤوس أصابعي. كنت شلالاً من مطر أزرق وأحمر منهمر، قوس قزح. كنت صغيرة خفيفة متحركة، وباستطاعتي استخدام أي طريقة سباحة في الهواء أهواها. كان بمقدوري التحلل والذوبان والعوم والتحليق. لمست موجات صغيرة حواف ملابسي،

إشعاعات فوسفورية. كان بوسعي رؤية عالم جديد بعيني الوسطى، عالم افتقدته سابقاً. حصلت على صور، جدران خلف السماء، وسماء ما وراء المطلق. أصبحت الجدران نافورات، والنوافذ أقواساً، والأقواس قبباً، والقبب سماءً، والسماء سجادة مزهرة، والجميع ذاب في فضاء صاف. نظرت إلى الخط الرفيع المنحني فوق الفضاء والمتواري في المطلق. رأيت مليون صفر على هذا الخط المنحني المتقلص في البعيد. ضحكت وقلت «عذراً، أنا لست عالمة رياضيات» كيف يمكنني قياس المطلق؟ لكني فهمت ذلك. الأصفار اختفت. كنت واقفة على حافة كوكب وحيدة، وبإمكاني سماع أصوات تدافع الكواكب السريع الدائرة في الفضاء. ثم صرت بينها، أدور على طولها، وكنت مدركة أن مهارة ما كانت ضرورية للتعامل مع وسائل النقل الجديدة هذه. أمتعتني صورتي واقفة في الفضاء ومحاولتي الحصول على «ساقي البحرية» أو «ساقي الفضائية». تساءلت من كان هناك قبلي وإن كان باستطاعتي العودة إلى الأرض. أصابتني الوحدة بالإحباط، لذا عدت إلى نقطة البداية. كنت واقفة أمام باب حديقة بشعة. لكن حين أمعنت النظر لم تكن منبسطة أو خضراء، بل معبداً بوذياً، صف أعمدة هندوسية، سقف فسيفساء مغربي، أبراج ذهبية تشكلت وأعيد تشكيلها كما لو كنت أراقب يد مصمم أثناء العمل. كنت أصمم لوالب حمراء منتشرة حتى شكلت نافذة وردية أو آلة ماندولين بحواف راديوم مشعة. حين كاد أن يولد تصميم وينظم نفسه، انحل وتبعه التالي دون ارتباك.

كل شكل، كل خط بعث معادلاً موسيقياً بانسجام كامل. بعث خط متموج لحناً متموجاً مؤازراً. كان للدائرة رموز موسيقية متماثلة، ألوان وأصوات شفافة، كون الأهرام أهراماً من النغمات الصاعدة، ولم يخلف الزائل سوى الصدى. كانت هذه التشكيلات تخطيطات تحضيرية لمدن شرقية كاملة. رأيت معابد جافا وكشمير ونيبال وسيلان وبورما وكمبوديا بكل ألوان الحجارة الكريمة مشعة من

الداخل. ثم انحلت الأشكال الخارجية للمعابد لتكشف أماكن الصلاة والمزارات. خلفت الألوان الحمراء والذهبية داخل المعابد موسيقى أوركسترالية معقدة مثل موسيقى بالي. بدأ شعوران يعذبانني: واحد يحدث بسرعة لذا لن أتمكن من تذكره، والآخر عدم قدرتي على قول ما رأيت، إذ كان ذلك مراوغاً وغامراً. ازدادت المعابد ارتفاعاً والموسيقى صخباً. هيمنت عليها موجة مد وجزر من أصوات الأجراس والنواقيس. صدحت !الأبراج الذهبية بترانيم المزمار، وكل لون وصوت يتنفس ويتحول باستمرار. أصبح دخان لفافتي ذهبياً، والستارة على النافذة من الذهب. ثم شعرت بأن كل جسدي قد صار ذهباً. ذهباً سائلاً، ذهباً لامعاً. كنت ذهباً، وكان ذلك أعظم حس متعة عرفته في حياتي، وأدري أنه كالرغبة. كان سر الحياة، عالم كيمياء سر الحياة.

كنت في مرسمك عند عودتي التدريجية من هذه التجربة الشبيهة بالحلم.

نظرت إلى صورك المجمعة وعرفتها. كنت كمن يزور المكان أول مرة. رأيت الألوان والضياء والعوم والحركة والسمات المتغيرة. فهمت كل قصصك وكل ما قلته لي. رأيت لماذا جعلت كل نسائك شفافات والبيوت مفتوحة مثل أوشحة مفكوكة حتى يمكن للفضاء والحرية أن يهبا داخلها». حين عادت إلى البيت في عطلة كانت قد خرجت من شرنقتها الرمادية. أصبحت الآن في السادسة عشرة وأرسلت أول ارتعاشها وإشعاعاتها مكسوة بألوان فاردا المتوهجة.

* * *

تأثرت رونات بقصة ابنة فاردا عندما تقابلا في نزل باراديس. دمدمت في سرها متمنية لو أن لها والداً ساحر ألوان يروي لها القصص. كي تفرحه، ارتدت ثوباً قطنياً بألوان تسترجع ثياب نسائه.

شد انتباه فاردا معطفها المخطط بخيوط شاحبة بنفسجية وبيضاء وخضراء. أثاره تمازج الألوان الجديد لتدرج اللون والقماش، أو نوع جديد من ألوان الرسم، كما يثير طبق جديد الرجال الآخرين. كان دائم البحث عن قطع قماش لصوره المجمعة الجديدة ولمس خطوط معطف رونات بمتعة.

يا لدهشته عندما أخذت رونات مقصاً كبيراً من المطبخ وقطعت أمام عينيه قطعة كبيرة تكفي لتغطية إحدى نسائه التجريديات.

قضى فاردا بضعة أيام في النزل حيث أقيمت عدة حفلات على شرفه. أدهش الفنانان بعضهما في هذه الحفلات كساحرين يجربان كل التعاويذ ودروب السحر على بعضهما بعضاً.

غير أن الصداقة بقيت علوية مثل بهلوانين يتبادلان الحديث عند ارتفاعهما مئات الأقدام فوق الجمهور فقط.

قالت رونات في حديثهما عن الفن الحديث: «كثير منه ينقصه الذوق».

قال فاردا: «ينقصه عدم الذوق».

ضحكا، لكن المسافة بينهما بقيت على حالها.

في أحد الأيام احتسى فاردا بعضاً من أجود نبيذ هنري، ذاك المخمر أعلى كمية من البلاغة واعترف له: «رونات رائعة!»

ردد هنري «هي رائعة، سأسمي صحراء باسمها».

«إنها أنثى كاملة».

«كاملة؟».

«مكونة بتمام وكمال في كل التفاصيل».

«تقول ذلك كما لو أنه ليس إطراءً».

«أقول بندم فقط، يا هنري. لأني بحاجة إلى نساء غير مكونات،

غير تامات، وغير مشكلات كي يمكنني تشكيلهن حسب نموذجي الخاص. أنا فنان يبحث عن شظايا وفُتات يمكنني تنسيقها بطريقة جديدة. المرأة الفنانة تصنع نموذجها الخاص بها».

«وصفة جيدة لنساء أخريات» قال هنري.

* * *

دخل بروس ورونات مقهى نصف معتم حيث يمكن لأي كان أن يعتلي المسرح الصغير ويغني أغاني شعبية وإذا أحسن الغناء يبقيه التصفيق، وإلا يشجع على الهبوط بسرعة. كانت الموائد ملطخة بالجعة ولاصقة بفعل الكوكا كولا، والنادلات متبرجات جداً بمكياج عيون كليوباترا ويلبسن فساتين فضفاضة وجوارب سوداء، ودائرة الضوء المسلطة على المغنيين حمراء وتجعلهم يبدون شاحبين محكومين بالغناء. كانت الظلال في غاية القوة حتى أنهم بدوا عندما يميلون على القيثار مكشوفين تماماً وليسوا كأغنية يتوجب على المرء سماعها. وقف بعض المستمعين على الجانب ومن هذه المجموعة المبهمة انطلقت امرأة صوبهما وقالت حين لمست ذراع رونات بصوت غنائي مضفية على الاسم كل رنين موسيقي: «أنت رونات» وأضافت بغنائية غير منطقية تماماً «أنا نينا» كما لو أن امرأة اسمها نينا ينبغي أن تخاطب امرأة اسمها رونات. ترددت رونات لأنها كانت تحاول تذكر أين رأت نينا فلم تستطع، وبدا هذا جلياً على وجهها حتى قالت نينا: «بالطبع لا يمكنك أن تتذكريني. هناك أربع عشرة امرأة في داخلي، وأنت قد لا تكونين إحداهن، ربما على خشبة المسرح عندما مثلت في «مسرح المؤلف» هل تذكرين؟ أنا كنت الفتاة الكفيفة».

«بالطبع أذكرها، لكنك لا تبدين كتلك المرأة، وحتى الآن لست المرأة نفسها التي جاءت إليَّ أول مرة لتتكلم معي».

صحيح أنها كانت تتغير بسرعة حتى أن رونات رأت فيها ميدا الجميلة بسبب الشعر المسترسل، لكن ميدا دون غيرة، وفي اللحظة التالية بدت مثل أوفيليا التي لم تعرف الرقاد بتاتاً. كان من المستحيل تخيلها نائمة أو غارقة. رفعت رأسها بكبرياء فوق رقبة نحيلة واستخدمت يديها كالدمى، وكل إصبع يقوم بدور مهم. كانت بلا حزن وفي غاية الخفة حتى بدت دون وزن تقريباً، كما لو كانت تؤدي دوراً على المسرح وحدها، بينما عيناها ترصدان الحجرة كلها، وكلماتها المجنحة السريعة حوار داخلي على وشك أن يقاطعه أحد. دفعت بكتفها إلى الأمام كمن يريد أن يشق طريقه عبر حشد كي يغادر المكان.

كانت كلمات وأفكار بروس سريعة مثل كلمات شخص بلا جذور ومعتاد على حزم أمتعته والتنقل بخفة من مدينة إلى مدينة ومن بيت إلى آخر، ومع ذلك لم يكن بمقدوره متابعة طيرانها وتنقلاتها المتقلبة. صاحبت حيرتها ابتسامة اعتذار مؤثرة. ولم تته في الانعطافات المفاجئة والتداعيات الحرة، بل بدت تواقة لأن لا يتابعها أحد.

«اسمي نينا جيتانا دو لا بريمافيرا» نطقت جيتانا كما لو أنها من مواليد إسبانيا، وبريمافيرا كما أنها ولدت في إيطاليا، ويمكن للمرء ملاحظة الزهور الفارسية على فستانها القطني الوردي.

«لكن هذه أسمائي الشتائية، أغيرها وفق الفصول. حين يأتي الربيع لا أكون بحاجة إلى بريمافيرا. أترك ذلك للفصل البعيد جداً». ألقت برأسها إلى الخلف كجواد يافع يحاول شم الربيع البعيد، إلى الخلف كثيراً حتى أن رونات حسبت أن رقبتها ستنتزع من مكانها. «انتظر مانفريد، لكنه غير قادم. هل يمكنني الجلوس معكما؟»

سأل بروس: «من هو مانفريد؟».

كررت الاسم لكن مقطّعاً «مان - فريد» كما لو كانت تتفحص جذوره اللغوية.

«مان ـ فريد، الرجل الذي سأحبه. ربما لم يولد بعد. كثيراً ما أحببت رجالاً لم يولدوا بعد».

كان بروس الذي لم ينحرف في طريق الشراب، والذي دعا مرة شخصاً على وشك أن يصبح شحاذاً إلى تناول قهوة معه، يخشى هذه الأوفيليا الجميلة غير الغارقة التي تستعير لغتها من الأسطورة. خاف من أنها تملك قوة لانتزاع الوتر الذي يربطه بأمان إلى الحياة العادية. أراد أن يغادر، غير أن مغنية جديدة صعدت في تلك اللحظة إلى المسرح وبدأت تتحدث قبل الغناء كما لو أنها تروج لأغانيها الخاصة.

لم تتوقف نينا عن الكلام إلا لتحدق برونات وبروس وتلمس وجهيهما بلطف برؤوس أصابعها كما لو كانت تلعب دور الفتاة الكفيفة على المسرح. ثم فتحت يديها وقالت لكل إصبع بقسوة: «أنت تتكلم كثيراً».

تعجبت رونات كيف يمكن لأي كان أن يضع كلمات مؤلف مسرحي في فمها حين تنساب كلماتها الشخصية بغزارة. لكن أمكنها اقتطاف جمل من جيرترود شتاين بدقة وتغني لحناً من موزارت عندما ذكرت الموسيقار. وهكذا لم تفقد ذاكرتها في تلك الذوات العديدة غير المترابطة.

طرح عليها بروس أسئلة كما لو أنه صحافي يجري معها مقابلة، وإن كان الصحافي معتاداً على التعامل مع شاعرية الفضاء والهواء والماء.

سألها «قولي شيئاً سأذكره دوماً» ظاناً أنه بهذه الطريقة قد يحلل الطبيعة المراوغة لحديثها.

تأملت بصمت وبرشاقة. قامت بخمس إيماءات. لمست جبينها، شفتيها، صدرها، وسط حنجرتها ثم وضعت يدها تحت كوعها وأبقتها هناك قائلة: «تذكر هذا!».

«عش - تر- وت» همهمت «تتضمن كل كلمة عدة شخصيات فيها، وإذا قطعت المقاطع ستصل إلى كل صفاتها. بروس اسم قصير جداً لك. اسم لا يصفك. هل لاحظت يوماً قصر الأسماء الأمريكية؟ إنها مثل السحالي التي فقدت ذيولها. حدث هذا عند بدء استقرار الأمريكيين. كانت تمرداً على الأسماء الأوروبية الطويلة. ينبغي أن يكون لك اسم مثل دوامة الخيل، اسم بصوت مرح ويجب أن يدور».

كان جسدها نحيلاً ولدناً. عيناها خضراوان واسعتان. أنفها مستقيم صاف. وجنتاها جميلتان لينتان. فاها ناعم لكن ليس كامل الملء. وأسنانها جميلة. غطى شعرها المجعد الطويل كتفيها. بدت على المسرح مثل فيفيان لي وفي الحياة اليومية كأنها ترتدي ملابس المسرح القديمة، قطن هندي مطبوع غير مصمم لها خصيصاً، منحسراً عن كتفيها. وكانت أنحل من أن يمسك الكتفين به بأمان، لكنه مغطى برداء بنفسجي رمادي بلا أكمام ملقى على كتفيها.

كانت تكشف أسنانها بين فينة وأخرى وتضع إصبعاً على السن الأوسط وتهسهس كما لو كانت تريد أن تخرج الزفير خارج جسدها مثل بالون على وشك التحليق. بإصبع نحيل طويل رسمت حرف S كبير على طاولة البار، قائلة إن هذه كانت علامة المطلق. كانت الهسهسة مقدمة لحروف SSSSSS.

«جوليان وزوجته لا يريداني أن أخرج وحدي لأنهما يعتقدان أنني مجنونة وأن المسؤولين عن بيت المجانين سيأخذونني ويعالجوني بالصدمة الكهربائية كي أستيقظ».

قالت رونات: «أنت تحلمين مستيقظة. كثير من الناس يفعلون ذلك، وبعضهم يشعر بالغيرة لأنهم لا يحلمون فإما يشربون الكحول أو يتناولون عقاقير ليحلموا».

«لن أعود إلى جوليان وجوليانا الليلة. أحبهما لكن هذا ليس

بيتي الليلة. ينبغي أن أجد بيتي الحقيقي هذه الليلة. لن يسمح لي البوليس بالنوم فوق الأشجار. لقد فعلت ذلك مرة في ساحة بيرشينغ. أحببت تسلق الأشجار هناك والاستماع إلى المبشرين ومراقبة المتشردين الذين يستمعون للأغاني والابتهالات. كانوا جميعاً ضائعين مثلي، وحتى ملابسهم لم تكن ملكهم. يمكن رؤية أنهم يرتدون ما يهبه الناس للجمعيات الخيرية أو ما يشترونه من المحلات الرخيصة. كانت كل قطعة ملك شخص آخر مختلف. جلست هناك فوق الشجرة طوال المساء، ولم أقدر على الهبوط. وعندما وجدني رجال الشرطة أخذوني إلى بناية كبيرة حيث صدمت بصدمة كهربائية كي أستيقظ. قال لي سيلفر فوكس مرة: نينا، عندك ما تعطيه للعالم، والعالم لا يملك شيئاً يعطيه لك».

«من سيلفر فوكس» سأل بروس المصر على إيجاد مدخل ويأمل أن يصبح لهذه القصة معنى ويتعرف على الشخصيات.

كانت كل كلمة تخرج من فمها لطيفة جميلة، كلمة حسية. عندما طرح بروس أسئلته كانت تنظر كأن براعتها السحرية قد فشلت. غير أنها كانت متساهلة مع جهله.

كانت تشرب النبيذ وعندما يفرغ قدحها تضعه على خدها كما لو كانت تبعث الدفء فيه، ولا يمكن لأحد أن يقسم أنه رآها تشرب. عند منتصف الليل رفضت كأساً آخر لكنها قالت إنها جائعة. توقفت محاولة تذكر متى تناولت الطعام آخر مرة. «آه، نعم، الليلة الماضية».

طلب بروس شطيرة ساندويش إيطالية كبيرة خرقاء مثل وجهها. قبل الشروع في الأكل رفعت ثوبها مرة أخرى لأن نهديها كانا أصغر من أن يمسكا بالثوب عديم الأحزمة. ثم تناولت الشطيرة كما لو كانت بسكويتة رقيقة هشة. نظرت إلى بروس نظرة لعوبة كأنها تعلم أنه لم يصدق أنها ستأكلها، ودهش عندما رآها تختفي

بينما عيناها ما زالتا تحدقان فيه كأنهما تقولان: «سأبتلعها لكن لن تراني آكلها».

قالت رونات: «تملكين قوة سحرية، ومع ذلك بروس وأنا نشعر بأن علينا حمايتك. سنأخذك إلى أي مكان تريدينه الليلة».

سألت نينا عن الوقت، رغم علم رونات أنها لا تكترث بذلك. كان ذلك جزءاً من أدبها الرفيع في مجاراة المعتقدات السائدة. جدلت نينا شعرها الطويل وخلعت سوارها استعداداً للرحلة.

قالت: «يخاف الناس الحالمين، لذا يريدون حجزي في مصح عقلي».

وجدوا على الرصيف أنابيب ضخمة بجانب شارع محفور. انحنت نينا فوق فتحة أحدها وأطلقت ضحكة داخل أنبوب الصرف الصحي ثم ركضت صوب الطرف الآخر لترى إن كانت ضحكتها خارجة منه.

لم تجد الصديقة التي كانت ستبقى معها، لذا أخذاها بروس ورونات في العربة إلى ماليبو. اعتقدت أن الحجرة صغيرة، ثم فتحت النافذة وقالت: «آه، لكن هناك في هذه الحجرة أكثر مما ظننت. إنها هائلة، وثمة هدير في أذني».

«إنه المحيط» قالت رونات.

طلبت نينا ورق قصدير فضي «ألصق دائماً ورق القصدير على الجدران لتصبح جميلة».

أرادت أن تنظف بلاط الأرضية بالجعة «ستجعلها الرغوة لامعة».

«هل تريدين النوم؟» سألت رونات.

قالت نينا «أنا لا أنام أبداً، أعطني ملاءة فقط».

أخذت الملاءة وغطت نفسها، ثم انزلقت إلى الأرضية قائلة: «الآن أنا مخفية».

أرادت في اليوم التالي أن تذهب إلى المسرح. كانت هناك مسرحية شاهدتها، لكنها تريد مشاهدتها ثانية.

حملت معها حقيبة ورق بنية لم تسمح لبروس بتركها في العربة عندما دخلا المسرح.

كان في المسرحية مشهد يدور حول مائدة طعام. جلس الممثلون حولها يتكلمون ويأكلون. فتحت نينا عندها الحقيبة الورقية وأخذت شطيرة ومخللاً راحت تأكلهما في انسجام مع الممثلين. همست لرونات: «لا ينبغي على المشاهدين مشاهدة الممثلين فقط. يجب أن يأكلوا معهم. سيقلل هذا من شعورهم بالوحدة».

ثم ضحكت بنعومة: «عندي صديق يقول إن أفضل طريقة لتذكر مدينة جميلة أو لوحة جميلة هي تناول بعض الطعام أثناء نظرك إليها. تساعد النكهة الصورة حقاً على دخول الجسد. ترسخها كالورنيش على اللوحة».

أصرت بعد العرض على زيارة الممثلين. «لا أعرف أياً منهم لكنهم يحبون رؤية الوجوه الودودة».

حياها صديق، كان ممثلاً مسرحياً. أخذ يدها وصحبها خارج المسرح.

لم يرها بروس ورونات لعدة أيام، ثم عادت يوماً مرتدية ثوباً جديداً وصندلاً جديداً.

قالت: «حصلت على عمل. هل تذكرون الممثل الشاب الذي قابلناه في المسرح؟ كانوا يقرؤون مسرحية أطفال لبرنامج إذاعي، لكن النجمة لم تقدر على الضحك كساحرة. تذكر أني فعلت ذلك مرة

لإخافة ناس لم أحبهم في حفلة. وهكذا وضعت في حجرة عازلة للصوت. كان بإمكاني رؤية الرجال عبر زجاج النوافذ يديرون آلاتهم. كانوا يرتدون سماعات ولم يرفعوا عيونهم قط لرؤية ما أقوم به. أضاؤوا ضوءاً أحمر وسمعت صوتاً يقول: «الآن اضحكي مثل ساحرة حتى أطلب منك التوقف». شعرت أن عليَّ الضحك والاستمرار في الضحك وجلب انتباههم، وإلا تركوني في تلك الحجرة ونسوني هناك. كنت وحيدة في الحجرة دون أصداء. لا تعرفون وحدة أن تكون في حجرة دون صدى. توجب عليَّ الضحك كساحرة ولا أحد في الجوار أضحك له، أو عليه. لتسخين نفسي ذهبت إلى كل زاوية في الحجرة متصورة أن كل زاوية شخصاً مختلفاً، ضحكت وضحكت وأخيراً صرت أضحك بشدة حتى خشيت أنني لن أستطيع التوقف. فكرت إن لم يأت أحد إلى الحجرة، إذا لم يأت مخلوق ويقول «هذا كاف» لن يكون بمقدوري التوقف. رأيت الدواليب تدور وتمنيت أن ينتهي الشريط. انتهى أخيراً وارتفع ذيله كذيل أفعى ولطم وجه الشاب الذي لم ينظر إليَّ. فتح الشاب الباب وقال لي: «سنأخذ كمية كبيرة من هذا» وأعطاني شيكاً. اشتريت هذا الثوب، هل يروق لكما؟ انظرا إنه واسع وفضفاض مثل خيمة. كل ما عليَّ رفعه قليلاً فوق رأسي، ثم الغوص فيه فأغطى تماماً عندها يمكنني النوم. وهل تحبان الصندل؟ اشتريت لكما هدية. وجدتها تنتظر في مزاد علني».

كانت ميسوكو من جاءت سائرة على حجارة البهو بخطوات قصيرة صغيرة. وبالرغم من أنها صعدت التل من موقف الحافلة، لم يظهر أي غبار على جواربها البيضاء والصندل الخشبي. كانت تحمل الزهور التي قطفتها من الطريق، والتي قدمتها لرونات.

كانت ميسوكو صغيرة وأنيقة. حملت رأسها المثقل بشعر أسود لامع معقود على شكل كعكة فوق رقبة رشيقة متموجة بلطف كما في الرسومات اليابانية الكلاسيكية. جذبت البشرة الذهبية الخالية من

العيوب عند قفا العنق والظاهرة من فتحة ياقة الكيمونو العين بخصالها الناعمة اللينة ولتعلن عن منطقة حسية. كان صوتها غنائياً كالأطفال، وضحكتها كموسيقى الرياح وأسلوبها في الوقوف والجلوس رشيق يشي بمتعة جمالية. كانت عيونها صغيرة وضيقة وبراقة. بدا أنفها كأنه بلا عظم مثل أنف طفل. حافظت على توازن محفوف بالمخاطر بين جنية صغيرة وامرأة وطفلة. كان وجهها وجه قمر أصبح امرأة. وكلامها خفيف مقطوع النفس، بنبرة تتراوح بين الغناء وسجع الحمام وضحكة طالبة مدرسة في أماكن محرمة.

ارتدت كيمونو من القطن الأبيض المطرز بعينات مزينة وفوقه آخر شفاف أسود، وطبقة بيضاء مثل لمعان الفخار اللؤلؤي، عروس ترى عبر خمار أرملة. كان الزنار أحمر اللون، وعلى خلفية معطفها الأسود الحريري زهرة أقحوان حمراء ضخمة.

«عليَّ أن أعتذر، لأن أمي في اليابان تملك كيمونو لكل يوم من أيام السنة حيث ينبغي أن يتماشى كل تصميم مع الفصل والزهور أو نبات متفتح ذلك اليوم. لا ينبغي أن أرتدي زهرة أقحوان في شهر فبراير لأنها تتفتح في شهر مايو فقط. أحب أن أتعلم الحرية الأمريكية في الملابس، وفي كل شيء. أود أن أكون مثلك، رونات، أنت أكثر النساء اللاتي عرفتهن حرية. لم أر مثل هذه الحرية إلا في إيطاليا، حيث النساء طبيعيات جداً، في اليابان كل شيء غير طبيعي».

بسبابتها رفعت زوايا فمها في تكشير مبالغ به. «علينا أن نبتسم دائماً».

ثم خفضت شفتاها وقامت بحركات إيمائية لسيل من الدموع المنهمرة من عينيها «حتى عندما نشعر بالبكاء».

كانوا جميعاً يجلسون على الشاطىء. قدمت رونات لها شراباً في كوب ورقي.

قالت رونات «ليس هذا بالكوب الجميل».

«لكنه يبدو جميلاً لي لأنه في غاية البساطة، ولا يحتاج إلى احتفال، لأن يصقل ويقدم على طبق مناسب في الوقت المناسب. كل شيء بسيط هنا. كنت أعتبر في بلادي فتاة تقدمية، لكن منذ أن بدأت السفر لأصبح ممثلة تعلمت أنني ما زلت مرتبطة بالتقاليد والأعراف. دعيت عندما ذهبت إلى باريس إلى الريف لقضاء عطلة نهاية أسبوع. كان للشباب نزل خاص بهم يدعى «La Maison des Oiseaux بيت الطيور» حين نطقت كلمة Oiseaux بدت مثل دوي النحل، أو النسيم). كنت في غاية الرسمية والاستقامة، وكانوا في غاية اللطف في ما يخص مخاوفي. جئت إلى أمريكا كي أتعلم أن أكون حرة. ما زالت المعتقدات القديمة قوية في اليابان، والتقاليد مفروضة علينا من قبل والدينا، لكن اليابان الجديدة تشدنا بعيداً، والشباب واقعون في هذه المعضلة. لا يمكننا تحرير أنفسنا إذا بقينا هنا، لذا علينا الرحيل. أحب عائلتي ولا أود أن أسبب لها الأذى. لا أشعر بالحرية».

زارت رونات شجر الكرز المتفتح الذي يزرعه بستاني الحدائق اليابانية. ضحكت ميسوكو لإعجاب رونات بالكرز المتفتح. «إنها سخيفة، تزهر لمدة قصيرة، وباقي الوقت تسقط منها الديدان على تسريحات شعرنا».

حين تتكلم ميسوكو عن الأشياء الحميمة مثل «بيت الطيور» تحني رأسها وتقفل عينيها كما لو كانت تدلي باعتراف في الكنيسة. تقفل يديها كأنها تصلي لميسوكو الجديدة التي تحاول أن تولد.

حصلت ميسوكو على دور كاساندرا في مسرحية يوريبيديس «نساء طروادة» حيث كافحت للخروج من حركاتها اليابانية المعهودة. تدحرجت فوق الصخور وسقطت على ركبتيها ولوحت بشعرها الأسود الطويل وانهارت في أسى فوضوي. كانت صورة كاريكاتورية لتأويل غربي للتراجيديا اليونانية. خشي المرء أن

يراها تقصف رقبتها الهشة أو تقضي على خطوطها الفاتنة إلى الأبد.

وضعت يدها الصغيرة أمام فمها، بعد العرض وهي تستقبل الزوار وتتقبل الإطراء، كما لو كانت تحجب الكلمات الجريئة الجديدة التي قد تبوح بها، أو تكظم تأثيرها.

تجنبت طوال فترة التمرين استخدام كلمة «اغتصاب». تكلمت عن نساء سابين وقد فقدن عذريتهن. قالت: «ما زال تشخيص كاساندرا موضع خلاف بين المخرج والكورس». لكن الأمر بدا بالنسبة لميسوكو كخلاف بين التأويل الغربي للتراجيديا اليونانية كفوضى ورشاقة الأسلوب الياباني الكلاسيكي.

«من فضلك رونات لا تقلقي نفسك بتجاوز ما بوسعك عمله من أجل مهنتي كممثلة، افعلي ما يأتي في طريقك بيسر».

ارتدت في زيارتها الثانية لرونات كيمونو حريرياً أصفر وحملت سلة صغيرة. بدت وشعرها الأسود المرفوع فوق رأسها مثل عباد شمس عملاقة بنواة سوداء مخملية متأرجحة في الحقول.

فتحت أصغر صندوق حبات دواء في العالم لتأخذ منه حبة سوكاريل.

«أجريت اليوم اختباراً لفيلم سينمائي. كان فيلم رعاة بقر صور بشكل مشوش».

ارتدت في مرة أخرى كيمونو رمادياً وحزاماً برتقالياً وتركت رأسها يميل لجهة كما الزنبق في الليل.

«رونات، لا أدري ما عليَّ عمله بخصوص مستقبلي الطويل وغير المعروف بشكل مروع. لست في الواقع متأكدة من كوني قادرة على تحقيق ما حلمت به، وما أنا أبحث عنه».

كان الوقت شهر مايو. ارتدت كيمونو مطرزاً بجكرنده مزهرة

أرجوانية وحزام ذهبي. أخيراً أحست أنها في انسجام مع تصميم الطبيعة.

«كل ما أريده يا رونات أن لا أكون عديمة الجدوى».

رسمت رونات رسماً لها. بينما كانت ترسم راقبت ميسوكو حرية حركتها، حرية لباسها، وأجوبتها السريعة ولغتها المبتكرة.

ثم أزف وقت المغادرة.

من نيويورك كتبت على ورق بنفسجي بسبب غياب الشمس. أرسلت لرونات صوراً. «اثنتان صاخبتان ومحرجتان صورتا لدعاية تجارية، لكن الصغيرة صورت على الطرز القديم المرح والطبيعي، وهذه لعزيزتي رونات. فهمت بشكل جيد شرحك حول الاستقلال. من البديهي أن الحياة والمهنة في اليابان أسهل وأقل مشقة، لكني أعتبر نفسي محظوظة جداً لتذوقي طعم الحرية الحلوة المرة. الطموح العالي في التجربة المسرحية والاستحواذ ليسا دون فائدة بالإضافة إلى أن نفاد الصبر وعدم الراحة يسببان لي كثيراً من القلق».

رسالة أخرى وصلت على ورق برتقالي لأن الشمس كانت قد ظهرت: «نبتتي، نبتة مطاطية بسيطة تنمو بقوة، تخبرني أن الربيع قد حل هنا. أعلم أن هذه نهاية أكثر فصل ثمين ومثير في حياتي. أعني مغادرة أمريكا والغرق في عالم المسرح الياباني. هذا شعور في غاية الغرابة والتعقيد. الشباب، والرغبة والأحلام والمستقبل الطويل، الطويل... كلها تخيفني. يا لها من مسؤولية عظيمة. إذا آلت بي الظروف لأن أصبح بلا فائدة. شعرت برعب حقيقي يا رونات في إحدى الليالي السالفة، عندما أدركت إن أحببت شخصاً آخر كثيراً، على سبيل المثال والدي أو أختي... لن أحصل على الحرية التي أملكها، حرية اختيار الموت...».

كان بإمكان رونات رؤية أن ميسوكو مقيدة في الكيمونو الملتف حولها، الكمان العريضان مثل جناحين مطبقين على جسدها، وقدماها في صندل قطني أبيض، في مسعاها ضعضعة الماضي الطقوسي، وأشكال التأمل الفكرية، والأسلوبية الكابحة، وتعجبت إن كان بإمكانها الانبعاث من قرون الضيق.

كتبت ميسوكو: «لم أستطع الكتابة لك بالأمس بسبب هطول المطر، ولم أجد ورقاً رمادياً لؤلؤياً ليماثله».

* * *

سكن القنصل الفرنسي في بيت إسباني زائف فوق تل في هوليوود. لم يطابق بأي شكل من الأشكال ما يتوقع من بيت قنصل فرنسي في هوليوود. كان القنصل الفرنسي روائياً، وزوجته تكتب السِّيَر، ولم تكن السكرتيرة التي فتحت الباب مثل بريجيت باردو والمكتب الكائن في المدخل بسيطاً، والغرف ليست مفروشة على أسلوب لويس السادس عشر، ولا القرن الرابع عشر ولا إمبراطور.

كان البار مخفياً بمصراع نافذة من نيوأورلينز. وهناك قطع سجاد تركية صغيرة على بلاط الأرضية، والوسائد حول المدفأة كانت من تايلند. كانت هناك رسومات فرنسية حديثة على الجدران وأيقونة روسية. أثاث الورنيش الأسود كان صينياً مزيفاً.

لم تكن السكرتيرة مغناجاً. كانت ترتدي ثوباً ضيقاً بسيطاً أسود اللون وياردتين من اللؤلؤ الرخيص. قادت رونات إلى حجرة الاستقبال. لاحظت رونات في الطريق أن الطاولة مغطاة بمجلات لم تكن غير محتشمة، بل مجلات فنون، وواحدة منها حول الكنائس الجديدة التي شيدت في فرنسا بصور تجريدية للمسيح وأخرى لمريم رسمها فنانون عصريون.

وقف القنصل قرب الباب. كان نحيل البنية، واسع العينين اللاتي

بخضرة البحر، بشرته جنوبية وشوه فاه انقباض في الشفة العليا أضفت عليه سمة ساخرة أو متجهمة، التفاف أعطى الوجه كله تعبيراً غامضاً. كان من الممكن أن يكون رجلاً وسيماً بالمعنى التقليدي، لكن سخريته أكسبته سمة شؤم. علمت رونات في وقت متأخر من الأمسية أن ذلك يعود لجرح أصابه في الحرب، ومن ثم شعرت بالانزعاج لتفكيرها أنها حكمت عليه من شكل وجهه الذي شوه بفعل ظروف خارجية. حاولت إعادة تركيب وجهه كما كان قبل الحرب. تعجبت إن كان الجرح قد أثر على حالته النفسية أيضاً، لأنها سمعت أنه يكون كئيباً حين يخلو إلى نفسه ومرح وفطن أمام الناس. قبّل يدها عند الباب وقال لها: «نحتفل بجائزة أدبية تلقيتها على كتابي». قال ذلك بنبرة حزينة. سألت رونات بصراحتها التلقائية: «لا يبدو أنك مسرور بذلك».

«هذا صحيح لأنها جاءت متأخرة».

«متأخرة! ولكن أنت مازلت في ريعان شبابك!».

«مع ذلك جاءت متأخرة جداً. متأخرة لأن تعلم أمي بها، فلقد ماتت خلال الحرب. أرادت أن أصبح كاتباً مشهوراً. فعلت ذلك من أجلها. الآن لا يبدو الأمر بتلك الأهمية. لماذا أكتب؟ ما نفع ذلك لي؟ يفشل المرء إما في فنه وإما في حياته».

«أنظر ما جلبت كتابتك لك. أنت محاط بنساء جميلات، وكتبك صورت أفلاماً سينمائية، وأنت تسافر وأينما حللت تجد أصدقاء. أريد أن أقابل جان دولاتوش. لقد جذبت إلى مخيلته وذكائه».

«ستصابين بخيبة أمل عندما أخبرك أنني جان».

«تعني، لم تعد جان، وأصبحت شخصاً آخر».

«لم أكن قط جان. لم أكن بطل كتابي، بل نصف رجل العصابات، المغامر الطموح. أرادتني أمي أن أكون البطل. غير أن رجل

العصابات من كنت، الرجل الذي جاء لمقابلة البطل في الكتاب. أترك العالم الذي أبدعه خلفي، مثل قشرة قديمة».

زوجة القنصل كانت إنجليزية. مدت يداً شاحبة شقراء، وبز وجهها الناعم الملامح وشعرها الأشقر الشاحب معطف المندرين الصيني كثير التطريز الذي ترتديه. عندما أبدت رونات إعجابها به قالت: «إنه يخفي الانتفاخ» ثم نظرت إلى القنصل بكآبة من لم يقبّل أيدي كل النساء، بل الجميلات فقط وأضافت: «يصاب آخرون بانهيارات عندما لا يحققون النجاح، أما هو فقد أصيب بها عند نجاحه الذي لم يمكن لأمه الاستمتاع به. يسعد حقاً عندما يقفل على نفسه الباب في الطابق العلوي مع كتاباته».

كان القنصل يفتح الشمبانيا التي وزعها الأسطول الفرنسي، وعلى صدره الأوسمة العسكرية والأدبية. كان يُضحِك الجميع بنكاته وملاحظاته دون أن يبتسم. لم يحضر معظم الحفلات، بل ترك زوجته تقوم بالمهمة. رآه الزوار أحياناً وهو يفتح النافذة ليدخل الحجرة بعض الهواء المنعش ثم تقول زوجته: «إنه يكتب روايته».

يستحضر الفناء في الذهن الديكور الجزائري، فهو مغطى بشجرة فلفل، وقامت الزوجة بوضع قطع سجاد مغربية فيه وطاقم قهوة تركي من النحاس مطعم بتصميم وردي.

كانت الطباخة روسية، هوايتها جمع القطط الهائمة والكلاب الجريحة. حين تأتي إلى الصالون لا يكون ذلك لجلب الثلج، بل لتطلب من زوجة القنصل ضمادات أو الأسبرين للحيوانات. لم تجلب الثلج أبداً، لكن زوجة القنصل أخبرت الغربيين المغرمين بسعة الأمكنة عن نصيحة خادمتها الروسية التي ثبت صحتها: «عندما تملك أفكارك مساحة واسعة فإنها تطير إلى اللامحدود. من الضروري العمل والتفكير في غرف موصدة، حتى لا يصبح بوسع الأفكار الفرار، ولكي تحاصر».

رسمياً، وجماهيرياً وفي عيون العالم، ناشرين ومجلات وعاملين في محطات التلفاز، كان هو الكاتب، وكتبه معروفة تحصل على الجوائز وتحقق الأفلام منها. قليلون كانوا يعرفون أن زوجة القنصل كانت كاتبة أيضاً.

كتبت كتاباً مفعماً بالحياة حول النساء الإنجليزيات اللاتي أردن الهرب من إنجلترا إلى الشرق، واللاتي حلمن بحياة مغامرات ونجحن بتحقيق رغباتهن بترف وكمال.

جسدياً كانت صورة طبق الأصل عن النساء الرشيقات في الرسومات الإنجليزية لدرجة يصعب تذكر ملامحها، حيث الطبقة الوردية وملامح الرسم الباهتة دائماً على وشك الزوال من ذاكرة المرء. كانت ابتسامتها ونظرتها الشاحبة الزرقاء سريعتي الزوال. لم يكن بمقدور المرء ربطها بالشخصيات التي رسمتها بألوان غنية، نساء جريئات أو معارضات للأعراف، وقبل كل شيء مسيّرات برغباتهن وأهوائهن.

كن بعيدات عنها حتى أن رونات تساءلت كيف اختارتهن وعاشت بحميمية معهن خلال سنوات البحث الأدبي في مدن عدة.

لكن الصلة بينهن ظهرت بالتدريج وببراعة. عاشت في قنصليات الدول التي وصفتها. لم تأت قطعة السجاد التركية القديمة من سوق. اكتشفت في لوس أنجلوس تاجر سجاد تركي في شارع بسيط وعادي. كانت معرفتها باللغة من الكمال لدرجة أنه دعاها لتناول قهوة من بلاده معه. تراكم السجاد في الطابق العلوي فوق بعضه بعضاً في كومة هائلة. وعلى قمتها على بعد ياردتين فقط من السقف، كان الطبق النحاسي الذي يجلس قربه كما العادة التركية.

كانت عندها كمية من السجاد وشكا زوجها من عدم قدرتها على مقاومة أخذ سجادة أخرى إلى البيت.

كانت السجادة الأخيرة بالغة القدم ولا يرى سوى خلفها وقليل من تصميم الصوف الملون، لكنها كانت تدري ماهية التصميم.

وفضلت حتى إعادة نسج القطع المفقودة في ذهنها. كان ذلك تدريباً روحياً يؤهلها وهي جالسة في البهو الكاليفورني على نسج جزئيات حياتها في البلاد الأجنبية ثانية. بإمكانها إيجاد رائحة وألوان تلك الأمسيات التي قضتها على أسطح البيوت في تركيا، ليس على الكراسي بل على السجاد والوسائد التركية. كان بوسعها رؤية كل زهرة وورقة ومحلاق يولد ثانية كلحن غنائي من الألوان الدافئة كألوان حياتها مع القنصل. يمكنها مرة أخرى عيش الزيارات إلى الأسواق والمقاهي والليالي في الصحراء مرتدية الملابس العربية، ومشاهد الرقص وتدريبات القبائل على القتال وسماع الألحان والأغاني والمرثيات وهي تدخن الأفيون.

كثيراً ما كانت تكتشف أزقة المدن الشرقية بينما القنصل جالس في حجرته يكتب. لذا عندما بدأت في كتابة سير تلك المغامرات عن الإنجليزيات المنفيات، كانت تعرف الملابس التي كن يرتدينها، والطعام الذي تناولنه، ومحتويات صناديقهن وسلالهن وحقائب أيديهن، وتفاصيل حول الأثاث، وما في داخل البيوت وما تحمله القوافل وحديث الخدم. قال زوجها: «كانت دائماً تشتري الحاجيات من السوق، أشياء لسنا بحاجة لها وعلينا حملها معنا في ترحالنا». لم يعلم أنها كانت تجمع أشياء ستستعملها لاحقاً بمحبة في كتابة السير.

في لوس أنجلوس كانت تملك غطاء موسلين فوق السرير كما كانت في طفولتها، وشعرت رونات أن في داخل المرأة الناضجة فتاة شابة ومراهقة عذراء ما زالت هاجعة تحت العشاء الرباني الأول وبراءة ثوب الزفاف. كان سرير امرأة لم تستيقظ، وبالرغم من وجود ذوائب شعر أشيب عند جذور الشعر الأشقر، فإن الشريط

الأزرق الشاحب الذي يربطه يظهر شيئاً خاطئاً غريباً في حسابات الطبيعة. كانت تتسم بمسحة مرحة كراية مثلثة مرفرفة غير هيابة قد تفسر لماذا تظهر الدهشة في عينها فقط عندما يعترف القنصل باستحواذ الفتيات الشابات على تفكيره.

كانت الجدران مغطاة بصور أربع نساء كتبت عنهن، يشبهنها كثيراً لدرجة أن وجهها يمكن أن يحل مكانهن جميعاً.

كان على بروس أن يظهر في عرض تلفزيوني لذا ترك الحفلة باكراً، وفي وقت متأخر وضع القنصل رونات في عربة أجرة مع سائق يعرفه حتى يتأكد من وصولها البيت سالمة.

كان سائق العربة يعتمر قلنسوة مستديرة وشعره طويل نوعاً ما. «أنا رسام من مرسيليا. أصبحت صديقاً والقنصل خلال الحرب، وأتكفل بنقله في الجوار. أنا مثل سائق خاص في مهام خاصة. نشرب سوياً. لعلي أعرفه أفضل من أي شخص آخر، لأننا أخوة كأس. كلانا يحب النبيذ والنساء. أعرف خليلته. إنها فتاة من الجزائر. أوصلها أحياناً إلى القنصلية عندما يكون وحيداً. في الواقع أعرفه أكثر مما تتصورين، فأنا أعرفه عندما يحتاج للهرب من الدور الذي يلعبه، الدبلوماسي ورجل المجتمع وسيد الكتابة وصديق الرجال المرموقين. أعرفه عندما يتمنى أن يغرق العالم الذي يعيش فيه لأنه لا يعني له شيئاً، ويجد فتيات يمكنه الحديث معهن بخشونة ولا يكون بحاجة لأن يكون فطناً أو شهماً أو يقبل أيديهن أو يفتح لهن أبواب العربات. معي يشرب طوال الليل، ويعلم أني سأرجعه سالماً دون أن تنبح الكلاب، فأنا أعرف كيف أقوده إلى حجرته دون ضجيج. كنا مرة نتقاسم العشيقة نفسها. كانت فتاة جميلة قليلة الطلبات. كنت آنذاك أعمل في الجيش الأمريكي. احتاجت الفتاة لمعطف شتوي، وكان كل ما بوسعي تقديمه لها بطانية عسكرية قديمة، صبغتها وقصتها كما معطفها القديم وحاكت

لنفسها معطفاً شتوياً جميلاً. ثم ذهبت إلى باريس لقضاء بضعة أيام في عطلة مع القنصل مرتدية البطانية العسكرية. عندما تزوجت أختها اشتريت لهما مظلة باراشوت حريرية (كانت في ذلك الوقت تصنع من الحرير وليس النايلون. جلست العائلة كلها وصنعت من المظلة ثوب زفاف جميل، وملابس داخلية وسراويل وقمصان نوم لكل العائلة. وأخيراً ثوب نوم للعروس. كم يحلو لي التفكير في كل تلك الفتيات الجميلات المسربلات بحرير المظلة. حلمت أنهن جميعاً يسبحن في السماء وجئن لزيارتي في كوخي العسكري الوحيد.

عندما أوصل رونات إلى بيتها أعطاها بطاقته: «يمكنك دائماً الاتصال بإميل، الرسام من مرسيليا، إذا كنت تودين القيام بمهمات سرية، مهمات حب سرية. أنا السرية بعينها».

طلبت زوجة القنصل من رونات وبروس اصطحابها إلى الصحراء الأمريكية التي لم ترها. اتفقوا على أخذها في العربة إلى هناك. حزمت زوجة القنصل طعام النزهة في سلة من الأماليد المجدول. انقطعت يد السلة لذا وضعت قلم رصاص مكانها. انتعلت صندلاً للصحراء مثل الذي تنتعله على السجاد التركي وملابس فضفاضة بدت مثل أصداء شاحبة لملابس شرقية سابقة.

هل كانت الصحراء الأمريكية ما أرادت أن تراه أم أنها كانت مركّبة في ذهنها فوق صحارى الصين وأفريقيا والهند وهذه خلفية تنسج عليها تركيبات المشاهد الماضية، وقرع الطبول قرب نار مخيم، وحوافر الجياد وصيحات العرب، بينما الماعز يشوى على نار مضرمة في الليل، وخيام سوداء وأردية منتصف الليل الزرقاء، وعيون سوداء ولحى مشعة.

أعجبت بالصحراء الأمريكية، لكن رونات لم تعرف إن كانت تستخدمها كسجادتها البالية وكإطار تنسج ثانية عليه مشاهد أكثر ترفاً بمصاحبة موسيقى أكثر صخباً.

كان بروس يغني لها أغاني رعاة بقر شعبية بمصاحبة القيثار. صوت شاب لم يعرف قط ألحان الرغبة الفظة، وصيحات الحروب القاسية، والحمى والألم واليأس والشهوة. تاهت في الأغاني المماثلة لجماله الخالي من العيوب. هل كان يعيد لها أغاني أخريات وقيثارات قديمة وشباب آخرين؟

بالنسبة لمن عاشوا حياة مفعمة بالحيوية كان من الصعب معرفة ما كانت تسترجع في تلك اللحظة، وكم من ألوان الماضي تستخدم لرسم الحاضر. هل رأت إعلانات ضخمة وفنادق ومقاهي ولوحات نقانق عملاقة أو سراباً وكثبان رمل حمراء وصفراء وغروب شمس قرمزياً؟

قالت: «ما أغرب هذه الصحراء! كيف تبدو هذه الصحراء غير مأهولة، كما لو أن من يعيشون فيها لا ينتمون إليها! كما لو كنا جميعاً سائحين!».

ثم تكلمت عن القنصل. كان نمط زواجهما مهلهلاً. بليت فيه الخيوط الفضية والذهبية والأرجوانية والحمراء والخضراء. ما تبقى كان علمها باستحواذ روح أمه التي أرادته أن يكون أولاً بطل حرب عليه، ثم أن يبز دون جوان في إغواء النساء. ولقد استمر في جَلَدٍ على تحقيق كل أمنياتها. جلب لها وشاحه الحربي والأوسمة. لكن قبل أن يقدم لها هديته كأفضل رواية لتلك السنة، توفيت.

لعبت زوجة القنصل دور الأم البديلة بكمال تقريباً. أُعجبت بشجاعته العسكرية، وشاركت في كتاباته، وافتخرت حتى ببراعته الغرامية الفائقة. قاسمته حب السياسة والتاريخ واللغات. وكانت تشاركه طموحاته. أنقذته برودتها الإنجليزية من الدموع والتشبث بالأشياء. فكرت أنهما قد يبقيان رفاق حياة إن لم يكونا رفاق فراش.

كان كل مشهد بينهما تمثيلية تخمين فَطِنة. كانت دائماً تمسك بالباب مفتوحاً وبدوره لم يغادر بتاتاً.

في لوس أنجلوس فقط بدأ يتكلم عن تبني ابنة. في كل سنوات الترحال تلك وأثناء كتابة كتبه لم يفكر بالأطفال. لكنه الآن يفكر بابنة.

ابتسمت زوجة القنصل وقالت: «لابد أن هذا بسيط اليوم. هناك عديد من الأيتام في العالم، في كوريا وهنغاريا وبولندا».

غير أن القنصل احتج قائلاً: «كلا، لا، لا أريد في البيت ضحية حرب منقوصة التغذية، ضعيفة، مثيرة للشفقة وفقيرة الدم. أريد طفلة أمريكية لوحتها الشمس وبصحة جيدة».

كانت زوجة القنصل تروي القصة التالية لرونات وبروس.

«يعني لوليتا» قالت رونات.

تذكرت زوجة القنصل أنها دخنت الأفيون في تركيا في الأزمات. وصف الشاعر ميشو كيف أن الحشيش قد وهبه وهم التحليق في الهواء. ومن ركوب هذا البساط ولدت أسطورة «البساط الطائر». كانت الآن بحاجة إلى بساط طائر لكنها لا تعرف وكر تدخين أفيون في لوس أنجلوس، لذا أعطاها أصدقاؤها مهدئاً.

أراحت رأسها على فراش عليه غلالة علوية وانتظرت تأثير التدخين، منتظرة أن تنساب بعيداً عن القنصل.

«حدث العكس. شعرت بأنني أزداد ثقلاً وكسلاً. شعرت أنني أتحول إلى بزاقة بيضاء».

بالرغم من المسكن أدركت زوجة القنصل أن تبني ابنة أمريكية، يتيمة أمريكية بصحة جيدة، قد تحولت إلى حملة في مملكة الشابات اليافعات التي قد لا يعود منها أبداً، لأنها هو من جرى تبنيه من قبل نجمة سينمائية. بدأت تتساءل إن كانت قصتهما قد انتهت.

تذكرت يوماً في المغرب، عندما جلست في مقهى في انتظار أن ينتهي القنصل من مؤتمر، وكانت تطرز سجادة صغيرة ملونة.

اجتمع المغاربة حولها لمشاهدتها كما يشاهدون الحرفيين المهرة الآخرين الذين يعملون في الشوارع. كانت تستعمل كل أنواع الصوف الملون التي يحبونها وكانت أعمال إبرتها اليدوية جميلة. انهمكت في تطريز مربع صغير انتهت من نصفه. انحنى مغربي بثوب أسود طويل ووقفة وقورة فوقها وهمس: «هل يمكن أن تعطيني السيدة قطعة التطريز هذه ذكرى ليديها الرشيقتين أثناء العمل؟ لم أر مثل هاتين اليدين الجميلتين تنسجان من قبل».

أرعب الطلب زوجة القنصل، إذ لم يسبق لها أن تخلت عما تطرزه من أشياء غطت كل كراسي القنصلية لسنوات عدة. كان كل ما بمقدورها قوله: «لكنها لم تنته بعد».

لم يفكر المغربي طويلاً أو كثيراً، فلقد أجاب في التو إلى حد ما: «لكن يا سيدتي العزيزة، كما ورد في القرآن، لا شيء ينتهي أبداً».

لا شيء ينتهي أبداً.

لكن هناك قرب قدمها مجلة مفتوحة ملقاة فيها صورة القنصل ونجمة سينمائية شابة في جندول في البندقية. علقت النجمة الشابة للصحافة بأنها لا تؤمن بالنظام الأوروبي المتمثل في التعاون الحميم للزوجة والعشيقة.

لا شيء ينتهي أبداً. كما كانا دائماً يتقاسمان ويشتركان في اهتماماتهما، دراسة جدلية مناطق الهند، كتاب الموتى في التيبت، تاريخ تركيا، تصنيف صيحات الحرب العربية، تاريخ السجاد والفخار في مصر، تاريخ بناء السفن، طيور أفريقيا، أمراض هايتي، هل تماثله الآن في تجاربه وتحب شخصاً مثل بروس، المعادل الذكري لحبيبة القنصل الجديدة؟

هل يمكنها أن تحب مثل هذه السماء الساكنة سكون عينيه، وهذه البشرة الملساء البراقة، والابتسامة الصريحة؟

كان الرجل الذي تحمله هذه اللحظة في ذهنها بطلاً تركياً، رجلاً داكن البشرة وعنيفاً تكتب الآن سيرته. كانت قوة عنفه الجذابة أعظم من البراءة والصفاء.

علاقة رومانسية مع رجل مات منذ أمد طويل لا تسبب على الأقل ألماً ولا فراقاً وخديعة.

استقلت طائرة إلى مدينته الأم.

لم يعرفه سوى نفر قليل، لكنها عرفته كما لو كانت زوجته. كانت خبيرة في إعادة شخص إلى الحياة بإخراجه من الكتب والملفات والرسائل التي كساها الغبار في سراديب المكتبات.

عند وصولها العاصمة ونزولها في الفندق الكبير، سألت عن وسائل للوصول إلى قرية مسقط رأس شوملا. أخبرت بأن عليها انتظار دليل، حيث لا يمكن لامرأة السفر إلى هناك وحيدة، كما أن الساعة الآن وقت قيلولة الظهيرة وعليها الراحة والانتظار.

غير أنها لم تستطع النوم أو الانتظار. كانت صورة شوملا التي تحملها في محفظتها مفعمة بالحياة جداً حتى أنها شعرت كما لو أن لها معه موعداً ليس بوسعها تأجيله.

انسلت من الفندق وسارت إلى موقف الحافلة مستفسرة عن الطريق. كانت الحافلات تأخذ حمولتها من الرجال والنساء والأطفال والحيوانات. كانت آخر من صعد، والمرأة الوحيدة الشاحبة والشقراء في الحافلة.

لا شيء ينتهي أبداً. كان القنصل يسير قدماً إلى المستقبل مع نجمته السينمائية الشابة، ويتعلم رقص الجاز في كهوف الليل عديمة النوافذ، ويدرس «قاموس العامية» لمساعدته على تأليف أفلام

سريعة، وزوجة القنصل تعود القهقرى إلى القرن السابع عشر. هل هذا شكل من أشكال وفائها؟

كانت الحافلة تسير الهوينى، ولم تعامل السيدة كسائحة لأن ملابسها فضفاضة مجعدة وغير مميزة. سألت محصل التذاكر عن قرية شوملا. دهش لأنها ستتوقف هناك. قرية صغيرة نصفها مهدم، حيث لا يوجد سائحون ولا فنادق ولا أدلة. أصرت فأوقف الحافلة. كانت الطريق بيضاء بفعل الشمس والغبار، بيضاء كمنحدر تزلج ثلجي. الحجارة مثل الطباشير، ولا ظلال من أشجار الفلفل والزيتون الفضية العارية والعطشى. كانت هناك بضع نساء مسربلات بالسواد يحملن السلال والأواني الفخارية أو يقفن قرب البئر. الشوارع ترابية أو من الحجارة الخشنة. كسر كعب فردة من حذائها فكسرت الآخر أيضاً. ربطت وشاح رقبتها حول شعرها وسارت وحيدة بينما نصف القرية هاجع في ساعة قيظ الظهيرة. وقفت بين حين وآخر لتسأل شخصاً: «بيت شوملا؟» بدا بعضهم مرتبكاً شكوكاً، بينما أشار آخرون إلى الطريق. كان بيته خارج القرية. راقب الناس المرأة شاحبة الوجه المتعثرة بحجارة الطريق من داخل الدكاكين المغطاة أبوابها بخيوط حبات مسبحة تغني في هبوب النسيم. أخيراً وصلت إلى مجموعة من البيوت نصف المهدمة. لم تكن هناك إشارة تدل على البيت. غير أن أحدهم قال: «هذا بيت شوملا».

كان الباب الخشبي الكبير مفتوحاً، لأن المفاصل كانت نصف بالية من فعل الصدأ. شيد البيت حول فناء، والحديقة معتنى بها وفيها زهور وشجيرات وفاكهة مزهرة. لكن الغرف كانت خراباً. كانت هناك بعض آثار جداريات وصفوف من الأعمدة المهشمة. السقوف زالت والنبات المتسلق مدلى من الدعامات. كان القيظ كمنوم مغناطيسي جمد كل شيء كما لو أنها في سبات عميق. لم تتحرك ورقة شجر، ولم يسمع صوت أي كان. لابد أن حضوره في ستة أقدام من اللحم البني الداكن وشعر أسود كثيف وصوت جهوري، قد

ملأ المكان الهش. لم يكن من المستغرب أنه ذهب للحروب بعيداً بالرغم من مولده هنا، وعاد إلى بلده ليموت فقط.

كانت ديانته تمنع كتابة السّير والتقاط الصور وتدوين سجلات الحياة الشخصية. لذا لم يجد سوى القليل لإعادة بناء حياته. قد يصاب كل من فكر به أو حاول عمل صورة حية له بالمآسي. لكن زوجة القنصل شعرت أنها وقد تكبدت كل هذه الخسارة لا يمكن أن تُلعن أكثر من ذلك. ماذا يمكن أن يحدث لها؟ لذا لم تكن خائفة. جلست على أحد المقاعد الحجرية وحاولت إعادة تركيب حياته. مريض، محتضر، لابد أنه سمع صوت تقطير مياه النافورة. لم يمت في غمرة معركة. هل يشعر بالندم على ذلك؟ كان يمكن أن يموت في هجومه صارخاً وفوق رأسه حسام معقوف مشهور إلى الأعلى. من كان هناك ليحمل الرأس الضخم الثقيل؟ سمعت وقع أقدام وهي تقول ذلك. ظهر شكل مسربل بالسواد خلف عمود. كانت فتاة في الرابعة عشرة، وجهها أسود وعيناها سوداوان مصقولتان، غير أن فمها كان ناعماً ولم تبرح الابتسامة شفتيها.

«جئت لأرى بيت شوملا لأني أكتب كتاباً عنه».

«لكن هذا ممنوع» قالت الفتاة.

«في بلدك نعم، لكن خارجه ما زال الناس يعتقدون أنه رجل عظيم، بطل واحد من أشجع الشجعان، ويودون معرفة المزيد عن حياته».

«هل بلغت الجرأة بالناس للكتابة عنه؟».

«ليس من شعبه، بل الدارسين والمؤرخين. هؤلاء قوم تحنيط، محنطو حيوانات. أريد أن أكتب عن الرجل الحي الذي أحبه. ماذا تعرفين عنه هنا في القرية؟».

«ولد هنا في هذا البيت. أنا من سلالته. يقولون إن حفيده يشبهه. تفضلي لتناول الشاي معنا».

وجدت خلف البيت في الخراب في جناح أنقذ من الدمار، عائلة كاملة، آباء وأجداد صامتون مثل المومياء وأحفاد.

قدموا لها الشاي. قرؤوا مخطوطاتها وقالوا: «كنت صادقة. لم تتسببي في أي أذى. إنك تعرفينه حقاً». كانت الفتاة من يعرف الإنجليزية وقامت بالترجمة.

دعوها للبقاء بضعة أيام.

نامت في سريره. رأت ملابسه وسيوفه وسكاكينه وحقائب ظهره وأبواقه وصهوات جياده والزينات الفضية. رأت أحذيته وأوشحته وخيامه وسجاد نومه وبطانيات نومه في البرد وقبعاته المحاطة بالفراء، وقلاداته وأوسمته ومهاميزه.

ابن الحفيد الذي قيل إنه يشبهه حين كان في الخامسة عشرة، أحب الخيول والحرب ويمكنه إطلاق صرخات خاصة للمعارك، وغنى الأغاني حول نار المخيم.

رأت مسودات الخرائط التي استخدمها والملاحظات والرسائل وعديد من رسومات تلك الفترة تصور المعارك وإعدامات وعقوبات واحتفالات وانتصارات وولائم وزفاف ودفن ومنح أوسمة للأبطال.

لم تكن هناك ساعات حائط في البيت ولا تقويم. سهلت رحلة طويلة عودتها إلى الماضي. محت السنين بعيداً عن جسدها.

عاشت مع شوملا، وزارها بدوره في أحلامها. ورغم أن الزمن فرض القسوة في التعامل مع الأعداء وعدم الرحمة مع السجناء، فإن طاعتها لهما قد لطفت بالرحمة الواسعة التي يمكنه ممارستها دون وصمها بكلمة امرأة.

أخذت ملاحظات من قصصهم. أقنعت العائلة أن شوملا، كرمز للشجاعة، ينتمي إلى عالم آخر وليس هناك ما يدنسه في عرض حياته على الملأ.

تحلى كبار السن بذاكرة رائعة. تذكروا كل التفاصيل التي سمعوها، لون جواده ولون حزامه وعدد حبات المسبحة في قلادته الجالبة للحظ، أسماء رفاقه وأصدقاءه وأقاربه في الدول الأخرى، أسماء كل المعارك وكل مكان زاره.

حين غادرت جعلوها تعدهم بأن تعود ثانية. حملت حقيبة سفر مليئة بالملاحظات والرسائل والرسومات الأولية. أصبحت عندها معرفة حميمة بالرجل. جعلت قامته وقسوته وبسالته العالم المعاصر يبدو أليفاً ومرعباً.

شب في الطائرة حريق قبل هبوطهم ببضعة دقائق. أرسل الطيار رسائل عبر الهاتف الداخلي «إذا استطعنا الهبوط قبل أن تصل النار إلى المحرك الثاني سنهبط بسلام. أمامنا أربع دقائق فقط للوصول. الرجاء عدم الارتباك».

دقيقة. اثنتان. ثلاث. أربع.

هبطوا وخرجوا من باب الطوارىء. كانت سيارة إطفائية وإسعاف في انتظارهم. أفرغت الطائرة دون حصول حادث، لكن النار اندلعت بعد مغادرتهم ومعها أحرقت المعلومات الشخصية الحميمة المتعلقة بشوملا التي لم ترد ديانته الغيورة وآلهته الغيورة أن تنشر على العالم وعلى النساء مثل زوجة القنصل اللاتي اقترفن خطيئة الزنا في أحلامهن.

* * *

جاء الكولونيل تيشار إلى نزل بارادايس لتناول العشاء. لو أرادت رونات أن ترسم صورة شخصية له لتوجب أن تكون صورة مجمعة، إذ بدا أنه مجمع من كل المواد باستثناء بشرة الإنسان وشعر البشر. كان ممكن لشعرة الأبيض أن يكون مصنوعاً من الزجاج الليفي، وبشرته من جلد السويدي رملي اللون، وجسمه العسكري النحيل من البلاستيك المصقول الجديد.

كانت لغته أسلوبية أيضاً تطلى فيها كل كلمة بغشاء عتيق. أكسبته الخدمة الطويلة في المخابرات الإنجليزية وقفة تعيد للذهن صور «تي. إي. لورنس»، الذي عرفه وتقاسم معه حب المغامرة والحرية والمنفى والشعر.

وهب الكولونيل تيشار ميزة ترشيح السمات الفكاهية من حياته الخاصة فقط. أما وقد تخلص من المرض والخطر والتراجيديا والعلاقات الشخصية، فإن حياته بدت خيالاً محضاً ساحراً، وحكاياته رائعة مناسبة لولائم العشاء ولا تسبب عسر هضم لأحد.

حل تلك الأمسية ضيفاً على منتج مشهور حيث خططا للقيام برحلة في الأدغال معاً. كان المنتج يسأله عن خواص الأسود.

قال الكولونيل تيشار: «حسناً، يمكنني أن أقص عليك حكاية تعطيك فكرة عن صعوبة إرضاء الأسود بشكل عام. هل تعرف السيدة لارابي؟ كنت معها في رحلة سفاري، ولم تكن تكترث بسحر الثياب أو أدوات التجميل، ولا إلى أي جهود اصطناعية لتجميل نفسها. قد تكون قررت في بداية حياتها أن لا فتنة أو فن يمكنه تعزيز ملامحها الجريئة، وشعرها الجاف كالقش، وبشرتها ذات الحبيبات الشبيهة بورق الزجاج. كنا نصطاد الأسود في نيروبي. كما تعلم أن قانون مثل هذا الصيد أن تبقى في عربة الجيب وتداوم على القيادة. كان مع السيدة لارابي مواطنان من أهل البلد، واحد يقود العربة والثاني يحمل البندقية. بطريقة أو بأخرى انفصل جيبها عن باقي القافلة. وعندما وصل أخدوداً ضحلاً توقف المحرك. ذهبت السيدة لارابي أثناء تصليح العربة لتتمشى على ضفة النهر. توارت عن الأنظار، لاحظت أثناء عودتها متأملة أسداً ضخماً يسير بموازاتها وعلى الوتيرة نفسها في قعر النهر الجاف. حافظت السيدة لارابي على هدوئها، واستمرت في السير نحو عربتها، وكذلك فعل الأسد. وصل كلاهما إلى منحنى في الأخدود. على اليمين كانت

طريق العودة إلى الجيب، وإلى اليسار كانت الأدغال. هنا سار الأسد بهدوء صوب الأدغال واختفى. لكن قبل الرحيل نظر إلى السيدة لارابي بحزن كما لو أنه يودعها. أخبرتني السيدة لارابي القصة، لأنها أرادت مني أن أشرح لها ما أنقذها من الالتهام. عجزت عن تفسير ذلك. ربما قرر الأسد أن بشرة السيدة لارابي ونحولها من صفات نوعية جديدة من حيوانات لا تروق له. ربما يكون قد تناول طعامه قبل وقت قصير وليس هناك ما يثير شهيته. على كلٍ ما لم يكن بوسعي إخباره للسيدة لارابي هو أنني لو كنت الأسد، وقابلتها سائرة على حافة ذلك الأخدود لداومت السير في الاتجاه المعاكس أيضاً. ألن تفعل أنت ذلك أيضاً؟».

في إحدى الأمسيات توقف مرة وسط قصة كأن النهاية لا تعنيه، وتوجب أن يُذّكر بإكمالها حتى يصل ذروة القصة.

قال: «النهاية، تريدون النهاية. لعلي عشت وقتاً طويلاً مع المغاربة، وأصبحت أؤمن مثلهم أن لا شيء ينتهي، لا شيء ينتهي أبداً».

«ماذا عن حياة المغامر؟ هل يبقى دائماً وحده؟ هل ستتزوج يوماً؟».

«يمكنني الزواج فقط إذا وجدت امرأة حياتها غنية بالمغامرات مثلي. عندها قد أغوى بالبقاء في البيت والجلوس قرب المدفأة لنروي لبعضنا بعضاً مغامرات بلا نهاية نعيشها ثانية».

قالت رونات: «أعرف المرأة المناسبة لك بالضبط. حياتها مليئة بالمغامرات مثل حياتك. حمل تي. إي. لورنس كتب أشعارها معه، وزارته في الصحراء. أنا على يقين أنكما زرتما الأماكن نفسها وتعرفان الناس أنفسهم وقمتما بالرحلات نفسها».

قال الكولونيل تيشار: «لكن ليس في الوقت نفسه. عدم التزامن

نذير شؤم للزواج. أسأل نفسي هل تأتي دائماً متأخرة؟ ليس بمقدوري قط تحمل انتظار امرأة».

قالت رونات: «لقد وصلت منذ حين».

كان ثوب تيسا فضفاضاً ومن قماش أسود شفاف ييس بمفعول مواد كيماوية مثل قماش الموسلين الشفاف الذي نشّي وكوي مرة. بدا القوس الضخم على صدرها كأجنحة قد تحملها بعيداً في أي لحظة. كان شعرها، رغم شيبه، لامعاً وكهربائياً، وذوائبه ملتفة في الهواء مثل ريش على سارية مشرعة. عكس ثوبها، عند وقفتها في حذائها عالي الكعب، يقظة روحها. كانت ضحكتها وصوتها يافعان لينان. يمكن للزمن أن يجعد بشرتها، يصيب يديها بالكلف، يثقل بلا رحمة جفنيها، لكنه غير قادر على قتل توهجها وحركتها وامتثالها لقبول كل تحد في الحياة.

ما أن قدّمت إلى الكولونيل تيشار حتى راحت تروي قصة: «لقد عدت تواً من منجمي الذهبي في جوست تاون. اشتريته عندما اكتشفوا طريقة أرخص في التعامل مع المعادن الخام متدنية المرتبة التي يستخرجها عمال المناجم كبار السن. كان كل ما عليَّ فعله هبوط سلم في فتحة المنجم من قبوي الخاص، استخراج ما يكفي من المعدن، ومعالجته بذلك الحامض الجديد للإنفاق في المساء على طاولة الميسر الشهيرة للرواد الكبار. بلدة «جوست تاون» تعود الآن للحياة. ما زال الصالون القديم مزيناً بجدران الدمقس الأحمر وثرية الكريستال التي اشتريت من فرنسا يوم حل الثراء على عمال المناجم أول مرة. يمكن للمرء العيش والمقامرة بعشرة دولارات في اليوم. سأدعو كل أصدقائي من الفنانين للمجيء والعيش معي هناك. الصعوبة الوحيدة التي تواجه هذه الخطة أني فقدت ثقتهم. عرضت خلال الحرب على بعض السرياليين المشتاقين لديارهم سبيلاً للعودة إلى أوروبا. اشتريت سفينة لهم من مزاد علني. كنت في نيوأورلينز ودعوت كل من يريد الإبحار للقدوم معي. لكن السفينة

غرقت في الميناء حتى قبل أن يصعدوا إليها. لعل بعضهم فكر أن هذه مؤامرة ضد السريالية».

حين غادرت تيسا همس الكولونيل لرونات: «يا للمرأة المثيرة للشفقة. كل الارتعاش والزركشة، حياتها بلا معنى، فوضى عارمة».

قضت رونات ليلة أرق، لعلمها أن تيسا كانت تبحث عن رجل يملك ما يكفي من القصص لتجعل مكوثهما في البيت يبدو كتقاعد من حياة الحركة. كانت مصابة بمرض القلب. كيف يمكن لرونات أن تخبرها أن الكولونيل تيشار سيغادر ذاك اليوم إلى الهند؟ هل يمكن لقلبها العتيق أن يتحمل هذه الهزيمة، وهي غير المعتادة على الهزيمة؟ كانت تتوقع من الكولونيل تيشار أن يدعوها، إذ أن فعل سحرها لم يفشل أبداً. لكن كانت رونات من اتصلت بصوتها الدافيء الجذل: اعتقد الكولونيل أنك ساحرة جداً، في غاية الفتنة في الواقع. أخبرني أنك تذكرينه بزوجته الراحلة، التي جعلته يعاني كثيراً ولم تكن مخلصة له. سيغادر إلى الهند. وقال إنك تشكلين خطراً كبيراً على هدوئه الفكري».

أصبح صوت تيسا أخف وأكثر شباباً، ورغم أن القلب المتعب كان يقطع التنفس بين كل جملة وأخرى، إلا أن معنوياتها ارتفعت عندما علمت أن الكولونيل تيشار قد فر خشية قوتها وسحرها.

«هل تعلمين يا رونات، أظن أنه محق. أنا متأكدة إني سأكون غير مخلصة له».

وهكذا ربح الكولونيل تيشار وتزوج وخانته زوجته في بضع ساعات فقط، انتصار يحفز القلب الفاشل لأي امرأة.

* * *

تعبت رونات من رسم الصور الشخصية، والضيافة وتصميم الثياب، لذا وضعت مخطط مجلة جديدة.

صممت عدداً تجريبياً لتعرضه على غير المؤمنين بالفكرة. كانت محتويات المجلة وغلافها حول الحرية، حرية المخيلة والتعبير والأسلوب والموضوع. وجدت كلما تحدثت مع صديق سراً مخبأ لأفكار رائعة لم يستطع أو تستطع تحقيقها. كان هناك ماكس المصور، الذي يذهب في الصباح إلى محلات بيع الأثاث ويرتب المطابخ لإعلانات التلفزيون. وظف عارضات قدمن خلطات الكعك. كان عليه عمل تصميم جديد كل يوم وتصويره، ثم الشروع في عمل آخر لليوم التالي مع عارضة جديدة تغسل شعرها، أو طفل يلعب بلعبة جديدة على سجادة غير قابلة للخراب. لكن في الليل كان يخرج مع آلة تصويره ويصور لوس أنجلوس السرية التي لا يعرفها إلا نفر قليل. كانت لديها حقيبة مليئة بالصور المدهشة التي رفضتها المجلات الأخرى لكونها «سابقة لأوانها» ولأنها خارج طريق من لا يتركون مكاتبهم بتاتاً.

كان جون ناقداً سينمائياً نافذ البصيرة وكتب إلى رونات واصفاً كل النصوص الجميلة والأصيلة التي كتبها كتاب جيدون وملقاة في مخازن باردة في الاستوديوهات. كما كتب أيضاً مقالة رائعة من كل المقاطع التي بترت من البداية والوسط أو أحياناً من النهاية من أجل تخطيط منسق.

قدمت جوديث ساندز بضع قصص كانت في غاية الطول أو القصر للمجلات الأخرى، التي لا ترتبط بأي أخبار صحفية مثل مسرحية في برودواي، وفيلم في هوليوود، وجريمة حادث سطو أو قفزة من الطابق الخامس عشر.

ترك بعض الروائيين فصولاً من رواياتهم. وُزنت الروايات بميزان ووجد أنها فاقت الوزن المسموح به بأونصتين(*).

(*) الأونصة وحدة وزن تساوي 28 أو 31 غرام تقريباً. م.

كانت بيتي تكسو الدمى في واجهات محل ساك، لكنها كانت ماهرة في وضع التصميمات المفعمة بالحياة والأخاذة. لم تقسم القصص إلى خمسة عشر عموداً تكمل في حلقات لاحقة تقطع بالإعلانات المبهرجة. فلقد حجزت الدعايات التجارية في الحجر الصحي.

قدم هنري أكثر وصفات الطعام سرية.

كان هاري يبيع الأسطوانات في محل موسيقى، وخزن في ذهنه أكبر قدر من المعلومات الكاملة حول موسيقى الجاز ومؤلفيها.

دعت رونات مساهمين مسلحين بالحماس والابتكار والبدع والاكتشاف ممن يحبون وسيلة إعلامهم وحبهم ناقل للعدوى. ما تخلصت منه كان النقاد المملين والمقلدين والوسطاء وأصحاب الكليشيهات المعتادة. حتى العدد التجريبي أثار في الناس مشاعر لم يعرفوها ويقرؤوها كما يرون كل ما تبطله المجلات الأخرى وتحلله وتركبه وتزيل رائحته الكريهة، وتعقمه وتخفيه وتجعله رتيباً ومقاوماً للعث وترشه بمواد طاردة للحياة.

«ينبغي أن تكون حية» كان مبدأ التحرير الوحيد عند رونات. حياً مثل خطوط دون باكاردي في رسم صور شخصياته، ومثل نساء رونات وحيواناتها، وقصص جوديث ساندز عن المدن والعشاق الذين عاشوا فيها، أو ما اختارته زوجة القنصل لكيف كتب الكتاب عن ارتداء النساء لباسهن (أو خلعه) وألف موضوع متألق آخر يعتقد المحررون الآخرون أنه خطير.

وضعت رونات إعلاناً تطلب فيه رأس مال للمجلة. في الأمسية نفسها تلقت مكالمة هاتفية: «اسمي جون ويلكز. إجابة على إعلانك، أقول إنني معجب بفكرة مجلتك. عمري 27 سنة، جنيت ثروتي من آبار النفط في فونيكس. أرسلي لي العدد التجريبي. هذا عنواني، لكن لا تتصلي بي هاتفياً لأن ذلك يشعرني بالعصبية. أنا دائم التنقل

بسبب أعمالي، ولا أعرف أين سأكون. أرسلي لي ميزانية بما تحتاجينه في السنة. غداً سأطير إلى نيويورك لحضور مؤتمر. في اليوم التالي قد أكون في مصر. أشعر بالملل من الأعمال التجارية وأرحب بفكرة مثيرة جديدة».

أرسلت رونات العدد التجريبي بالبريد. أجرى المليونير الشاب اتصالاً هاتفياً ثانياً: «أنا موجود في نيويورك. استلمت العدد التجريبي. أحب أفكارك. استمري في العمل عليها. حالما تسنح لي الفرصة سأطير إلى لوس أنجلوس وأقابل العاملين معك ومحاميك. أخبري محاميك أن يحضر مسودة العقد».

أجرت رونات التحريات المعتادة حول جون ويلكز. كانت الإجابة: غير معروف. لكن قد يملك جون ويلكز حسابات باسم شركته. وربما ليس في فونيكس. لذا تخلت رونات عن فكرة البحث عن مراجع موثوقة.

بدأت المواد في الوصول، وكذلك رسوم الكاريكاتير ورسائل وتسجيلات للمراجعة، وكتب لكتابة عرض نقدي حولها، ودعوات لافتتاح أفلام ومسرحيات. دعيت رونات والعاملين معها لحضور عروض أزياء ومعارض فنية والسفر إلى باريس بنصف السعر، وزيارة نجوم السينما وإجراء مقابلات مع زوار من اليابان.

تخلوا جميعاً عن أعمالهم الروتينية. طبعت رونات بطاقات بألقابهم المختلفة. يومياً كان يصل من المواد ما يكفي لملء مجلة.

كان جون ويلكز مشغولاً، طائراً هنا وهناك، لكنه كان على اتصال دائم، ودائماً مهتماً بالمجلة. أرسل صورة له تشبه جاري كوبر عندما كان في سنه.

استأجرت رونات مكتباً. ساعدها الأصدقاء في الديكور الداخلي. كان رمزه التحرك. علقت بضعة أجسام متحركة من السقف لتعبر عن فكرة الحيوية والحركة.

بعد بضعة أسابيع كانوا على صلة بكل البلاد التي أرادوا زيارتها وكل الشخصيات التي ودوا معرفتها. كان ذلك كما لو أن كل فرد استجاب إلى الحماس الشديد وجُذب إلى جو لم تسلب قدرته على الإثارة بعد بقصة تم تداولها وجففت طراوتها سياسات التحرير. جسدت المجلة الأمنيات والتخيلات السرية. وأنجبت كل فكرة مشجعة فكرة جديدة. لم تستطع رونات إلا بصعوبة بالغة احتواء هذا الثراء، كأن بئر بترول تدفق. مشاكل دورة التوزيع؟ كانت المشكلة في الدورة الدموية فقط.

صفق جون ويلكز استحساناً وضحك وشارك في المولد العالمي لمجلة «نعم». رعى ابتهاج وأصالة رونات، وإيمانها بأن من تولد على يديه الأفكار ينبغي أن يعتني بها، وإلا ذوت.

«هل هذا وقت الاحتفال؟» سألوا.

قالت رونات: «دعونا ننتظر حتى يأتي جون ويلكز. دعونا ننتظر حتى توقيع العقد».

لكنهم اشتروا شمبانيا. كان من الممتع شراء الشمبانيا وملء ورقة قد تدفع من حساب المصاريف. لم يعد هناك قلق بخصوص الميزانيات الشخصية الضيقة. يا لمتعة ركوب عربة أجرة عندما تحمل حقائب أوراق ثقيلة ودفع الأجرة! يا لمتعة تناول الطعام في مطعم جديد كل يوم ومعاملتك كمليونير كي تكتب بإطراء عن العشاء! يا لمتعة زيارة صاحب المطبعة الذي يعرفه الجميع، وإمكانية القول له إن الدفع سيكون سخياً هذه المرة! يا لمتعة التخطيط لعيد الميلاد من شهر يونيو، وحجز غرف أوتيل في مهرجان البندقية السينمائي، وقبول دعوات احتفالات الجاز!

وصل جون ويلكز. قضى ورونات ثلاثة أيام مع المحامين. بدت رونات متعبة لكنها مبتهجة. «قال نعم لكل شيء».

ولدت في جو الحماسة أفكار جديدة. أخيراً انتهى من العقود. قَبِل المليونير كل شيء، كما وافق على مقابلة كل العاملين في المجلة وتناول الشمبانيا معهم. كان من المقرر أن يتم اللقاء في بيت رونات.

بغلالة ذهبية أحاطت الشمس البحر وذوائب أوراق الشجر، وإطارات النوافذ والفخار واللوحات. وصلت العربات، شعروا جميعاً ببهجة وساروا بثقة أعظم.

جلب بروس مظلة لبرونات من أجل رحلتها إلى باريس. كانت مصنوعة من السيلوفان ومشجرة بعناقيد بنفسج بلاستيكية، ويمكن السير فيها تحت المطر ورؤية السماء والبنايات والناس. وخلفها يكون وجهها عند فتحها كوجه حورية بحر في حوض سمك. البنفسج يبدو مزروعاً في شعرها الأسود.

لكن جون ويلكز لم يأت. رن الهاتف. استأذن. استدعي إلى مؤتمر في دينفر. على أي حال، كان عليه أن يأخذ العقود إلى لجنته الخاصة ويرسل الشيك لإتمام الصفقة.

كانت هناك لحظة ترقب قلق.

قالت رونات: «لا ينبغي أن نؤمن بالخرافات. هكذا يتصرف أصحاب الملايين. هم دائماً في مؤتمرات تتعلق بأعمالهم، ولا يملكون الوقت للاحتفالات».

شربوا الشمبانيا، لكن للمرة الأولى بدا اجتماعهم كاجتماع العاملين في مجلات أخرى، رزيناً وحذراً.

كان اليوم التالي صامتاً يسوده ترقب قلق، كما لو أن مكتب البريد والبرق والبنك وساعي البريد لا ينبغي إزعاجهم أثناء تأدية مهامهم. ولم يتصل العاملون في المجلة ببعضهم بعضاً لطرح أفكار جديدة.

على كل مكتب كانت هناك فواتير لم تدفع، وعلى مكتب رونات فاتورة من طابع العدد التجريبي، وثمن ورق الكتابة والبطاقات، وفاتورة أخرى بإيجار المكتب.

كان لكل منهم مشكلة شخصية خاصة لا يريد إشراك الآخرين فيها: فواتير أطباء وتأمين ودعم الوالدين، كل المستلزمات التي علينا القيام بها عند كسب المال أثناء القيام بعمل نحبه. كاتب غير معروف رأى اسمه على الغلاف. مغنية مغمورة صدقت نفسها بأنها اكتشفت.

لكن الشيك لم يصل.

نكثت رونات وعدها بعدم الاتصال بجون ويلكز. لكن عندما فعلت استغرق قدومه وقتاً طويلاً. كانت أجوبته لأول مرة مبهمة مراوغة. استشارت رونات محام الذي بدوره تكلم مع جاره العامل في مكتب التحقيقات الفيدرالية. أجريت تحريات بهدوء. مر أسبوعان منذ أن وقع جون ويلكز العقود ووعد بإرسال الشيك.

اكتشفت رونات عندها أن المليونير الشاب كان بستانياً في بيت مليونير في فونيكس، ويحب تمثيل دور المليونير، ولقد قام بذلك من قبل. زار نيويورك وحضر مؤتمرات عدة حول مشروعات جديدة، درسها ووقع عقوداً ثم اختفى.

كان بإمكان رونات تخيله يشذب الورد ويستمع إلى حديث رجالات النفط الأثرياء المرتاحين على الكراسي الطويلة حول أحواض السباحة الخاصة بهم: «أنا أستثمر في مجلة بلاي بوي، أنا أنتج مسرحية، أنا أمول فيلماً».

وكان بمقدور رونات رؤية الشاب البستاني الخجول الوسيم يدرس الأدوار التي سيقوم بها أثناء سقيه حدائق البيوت وزرعه الشجيرات. تعلم تجارة مهنة تمنحه البهجة وحساً بالقوة. ولقد فعل ذلك جيداً.

ربما كان الهاتف عندما تكلمت معه في المطبخ، أو في قسم المعدات حيث يمكن للناس سماع حديثه. وأصحاب الملايين الحقيقيين ربما كانوا جالسين على بعد ياردات منه يخططون لاستثمار.

لم يكن هناك قانون يقضي بسجن رجل خدع آخر بالأوهام لا المال. سقى البستاني أحلام الآخرين، وليس خطأه أنهم كبروا وعليه تشذيبهم.

* * *

تقابلت رونات وليزا في أكابولكو عندما كانت هناك لبضعة أيام لتصميم جدارية فندق جديد.

كانت جالسة في المطعم عندما رأت شخصية من شخصيات تولوز ـ لوتريك تهبط الدرج، تولوز ـ لوتريك مع أدغال روسو في الخلفية. كما جذب عيني رونات اللون البراق لثوبها، الذي كان من القماش المكسيكي وتزينت بمجوهرات منسوخة من أيام الأزتيك(*) الذهبية السخية. لم يكن الشعر المنتفخ شائعاً آنذاك، لكنه كان طبيعياً وجعل وجهها صغيراً ورقيقاً. كان أنفها صغيراً مستقيماً كالذي نراه في اللوحات فقط، عيناها ساخرتان دائماً، ورقبتها نحيلة ورأسها جميل متصل بجسد شهواني بشكل مثير للدهشة. كان جسدها ثقيلاً لكن على طريقة النساء البدائيات، ليس هامداً فاقد النشاط، بل متدفقاً بالحيوية والانسجام، رشيقاً ومهتزاً. كان في حركاتها نشاط وانسياب لشيء أبعد، حركة محرضة كما لو أنها على وشك خلع ردائها. تدير شفتيها وكتفيها مثل راقصة تعرٍ على وشك التخلص من ملابسها. كان لها دوران البحارة والمومسات الزخم الموحي باهتزاز السفن أو الأسرة. دفعت بصدرها إلى الأمام

(*) شعب حكم المكسيك قبل الفتح الإسباني. م.

كما لو كانت ستفصل نفسها عنه وتطير بعيداً. تضع يداها على مواقع مختلفة من جسدها كأنها تشير إلى أين ينبغي على العين أن تحط. هزت رأسها، يقظة وحيوانية، وضحكت برقرقة انسابت في كل كيانها. كانت كمن داوم على الرقص بمدة تكفي لبقاء مجوهراتها ترن وأقراطها تتأرجح.

تبادلت رونات وليزا الحديث على الشرفة في الليل بعد العشاء في انتظار ما سيجلبه المساء. بالرغم من وجود طفليها، ابنة في السابعة وابن في التاسعة، عاملها الرجال كما النساء الشابات. كانت ضحكتها مغرية وهي مستلقية على الكرسي الطويل، وتبز الزهور المدارية النضرة، تويجة ناعمة معطرة بين أوراق النبات المداري القاتم الثقيل. غير أن ريش الطائر الغريب لم يظهر كجزء ثابت منها، أشعرها بعدم الراحة لأن العري كان وضعها الطبيعي.

كان بإمكانها التغزل والتعذيب بإثارة الرغبة والضحك مع من لا تحب كمحترفة. لم تتحفظ أو تقتصد قط في عرض مفاتنها، ولم تحرم أحداً من ضحكتها الرنانة، أو التحديق في عينيها الملتهبتين، والاقتراب من بشرتها التي لوحتها الشمس. كانت أكابولكو خلفية مثالية لها، إذ أن بشرتها داكنة بالطبيعة وبدت في انسجام مع الطقس مثل الأهالي، لا دفء مبالغ فيه ولا مبتعدة عنه، لا تهولها العتمة أبداً ولا أصوات الطيور الغريبة وهذر القردة أو الاكتشاف المفاجيء لعظاية الأغوانة التي تمارس التمويه والتخفي، متجمدة في الشمس ومكتسبة لون الصخر الذي هي عليه.

عندما رسمها دييغو ريفيرا بفرشاته المكسيكية ضاعف من سمك فمها وعرض أنفها، وجعل سعة عينيها مضاعفة مضيفاً إليها شراسة فلم تعد ليزا، لأن ليزا كانت مفارقة بين جسد أدغال وافر النمو ورأس تولوز ـ لوتريك الناعم.

لم يفكر أحد في أكابولكو بمهنة وألقاب وخلفية أو تاريخ

مضى. عاش الجميع في الحاضر ونظروا إلى بعض بتقدير المظهر فقط، كما ينظر المرء إلى البحر والجبال والبحيرات الصغيرة والطيور والحيوانات والزهور. اختلطت الأجناس والطبقات والثروات كلها في جسد يرنو للمتعة. جعلت السباحة والاستلقاء في الشمس والرقص والكسل الناس جزءاً من المشهد الذي يسر العين فقط. كانت النوعية مسألة إسهام في جمال المنظر. حددت النوعية الفريدة كيف يبدو المرء عند هبوطه الدرجات إلى صالة الطعام، لأن الضوء وضع بين الصبار والنخيل، وكان الهبوط والتوقف قبل دخول صالة الطعام مثل مسرح صغير كائن فوق الضيوف تماماً، مسرح جيد الإضاءة والتصميم حتى يمكن لمئات العيون معرفة إن كان هذا الشكل، أم لم يكن، إسهاماً جمالياً في جزيرة المتعة الصغيرة. كان بإمكان أي شخص في تلك اللحظة اكتساب عضوية في نادي المتجردين من الملابس.

معرفة أصل ليزا كان أكثر غموضاً بسبب معرفتها لغات بلاد عدة، علاوة على ثيابها الغريبة وبيتها في أكوبولكو، وانعدام جذورها، وعدد أزواجها الذين لم يعرفهم أحد، ودخلها الغامض.

كان على كل من يريد أن يضعها في رواية واقعية أن يعود، حتى ضد كل ما يؤمن به، إلى الانطباعية. عاملها الخدم المكسيكيون كواحدة منهم لأنها كانت تتناول طعامهم. نُصبت إلهاً مكسيكياً على عمود في حديقتها. لم تكن هناك كتب في بيتها، بل كثير من القماش المعد للرسم وكميات من الألوان.

أما وقد اعتبرت المكسيك في ذاكرتها مكان إقامتها الدائم، فقد دهشت رونات حين صادفتها في الشارع الثالث في نيويورك قبل أن يزال القطار المرفوع. كانت ليزا تحمل حقيبة تسوق بنية، وشعرها الأشعث الكثيف مخفي بمنديل. تساءلت رونات وهلة، في خطوط ضوء الشمس المرشحة للسخام إن كان كل ما تذكرته يتعلق

بأكابولكو وليس بليزا، لأنها لم تقدر أن تجد في ليزا أي وميض ذهب وشمس ولا رنين أساور أو ضحكات لؤلؤية. كانت ليزا ترتدي معطف شتاء وبدا أنها مندمجة في المدينة والشتاء.

«رونات! ماذا تفعلين في نيويورك؟».

«عندي معرض في الشارع 57. وأنت ليزا؟».

«هل تذكرين مسابقة إبحار وصيد أكابولكو؟ حسناً، كان بيل يعمل في إحدى الصحف كمراسل لمجلة» فيلد أند ستريم». جاء في عربته المقطورة لتغطية الاحتفال. كنت قد انتهيت من بناء بيتي وعندي حفلة احتفالاً بالبيت الجديد. شرعنا في الرقص معاً ليلة الأحد، ليلة توزيع الجوائز، وداومنا على الرقص معاً ليلتين أو ثلاثاً. لا أذكر أننا توقفنا لتناول الطعام. كنت قد طلقت زوجي الثالث قبل فترة قصيرة، وشعرت ببدء مرحلة جديدة تماماً. لكني لم أستطع إقناع بيل بالبقاء هناك. عوض ذلك أعطاني ساعة لتحضير نفسي وأخذني معه في مقطورته. ذهبنا من أكابولكو إلى فريزر، كولورادو في مهمة أخرى. وصلت هناك بصندل ذهبي أثناء سقوط الثلوج. بينما كان بيل يغطي قصته، كنت أنتظره في كافتيريا وألعب في آلة حظ كهربائية. طالما حلمت بالاستقرار في أكابولكو والعيش هناك وأن أصبح مواطنة. ثم وجدت نفسي في عاصفة ثلجية أنام وأسافر في عربة مقطورة في الطريق إلى نيويورك».

أثناء حديثهما، قادت ليزا رونات إلى شقة صغيرة فقيرة. صعدا إلى الطابق العلوي.

«بيل فقير لأن معظم راتبه يذهب لدفع نفقة زوجته».

كان عليهما التوقف عن الحديث عندما يمر القطار. أتاح ذلك وقتاً لرونات كي تتساءل لماذا لم تتعلق ليزا بالحياة الجميلة.

عندما وصلا الطابق العلوي وجدت رونات عوض الباب القاتم

المجهول بوابة حديقة بلون أصفر فاتح. غطت ليزا جدران الممر بشبكية مغطاة بأوراق أغصان الدوالي. تدلى من السقف نبات في قوارير وأقفاص مليئة بالطيور المغردة. عندما لمست البوابة قرعت الأجراس المكسيكية. خلعت ليزا معطفها الأسود فبدت بثوب برتقالي ملتهب. لم تعد الشقة الصغيرة في نيويورك. قطع سجاد، ألواح، جداريات، لوحات، تماثيل، فرو أبيض على السرير. كانت أكابولكو. وضعت الإله الحجري في كوة في الحائط، وطفت مجوهراتها من صندوق حفظ النفائس، بينما كان مشغل الأسطوانات يبث موسيقى مكسيكية ناعمة.

كانت هناك زهور مكسيكية من الورق في إناء، وحرير على النوافذ ومصراع النوافذ مدهون باللون الأصفر حتى أنه في ذلك اليوم المعتم بدت الشمس ساطعة. وهناك مزيد من الطيور تغرد في المطبخ الصغير.

تأثرت رونات بهذا المجهود الشجاع في نقل الأجواء. هل يمكن أن تبقى ليزا في هذا الوضع الوهمي؟ نجح بيل في اقتلاعها من هناك، لكنه لم يجعلها تقبل حياته. ما الصفات التي يملكها لتجازف بالتخلي عن طبيعتها المدارية البدائية؟

قالت ليزا: «ذهب بيل لتناول مشروب. سيجلب أختي التي تعيش في الجوار».

في تلك اللحظة وصلا. كان بيل صغيراً وغير وسيم، يلعن رنين الأجراس فوق الباب وأغصان البوابة اللينة التي أمسكت بمعطفه. كانت ربطة عنقه منحرفة، ومعطفه مجعد ويتدلى من شفتيه عقب سيجار غير مشعل. كان منسجماً والشارع الثالث وكذلك لكنته الخشنة، وأسلوبه في المبالغة وتوقه لبلده وأخلاقه السيئة، كما لو كان فخوراً بذلك. كانت لأخت ليزا لهجة أولاد الشارع، وأدب عاملة

بدالة هاتف غير شخصي وميكانيكي. تكلم كلاهما مع ليزا كأنها مدّعية، وكل شيء معلق على الجدران اصطناعي لم يأتها بالغريزة.

وضع بيل يده على ركبة ليزا وخاطب رونات مبتسماً: «حسناً، أليس من الجيد أن تعودي إلى البيت ثانية؟ في أحد الأيام ستلقين بكل هذه الأشياء الأجنبية الغريبة وتصبحين نفسك ثانية».

«إلى البيت؟» سألت رونات.

قال بيل: «نعم، إلى البيت. عاشت ليزا قرب ركن الشارع عندما كنا صغاراً. كنا نلعب في الشارع معاً. كنت أول ولد يقبلها. لم نر بعضنا لمدة عشرين سنة. أرادت مني أن أبقى في أكابولكو وأعيش حياتها مع كل هؤلاء الدجالين الذين يتحدثون لغات لا أفهمها. لم أحسب أنها ستجلب كل هذه الأشياء معها. لا يمكنني أن أدعو أصدقائي للعب الورق هنا».

قالت أخت ليزا: «كلانا يعمل في المكتب نفسه. المشكلة بدأت حين ربحت بعثة لتعلم الرسم في المكسيك. دلف كل ذلك إلى تفكيرها. تزوجت رجل بترول، ثم رجلاً يملك يختاً كبيراً بما فيه الكفاية للإبحار إلى أوروبا».

ولأن اللوحات والنبات والتماثيل والزهور والطيور نقلت من هناك ولم تولد هنا، بدأت كأنها خلفية لوحة، وليزا نفسها عملت كنموذج لرسام بعد ظهر أحد الأيام، بينما بدا بيل وأخت ليزا مثل فلاحين ساذجين دخلا معرضاً عن طريق الخطأ متوقعين رؤية صور خيول وسمك ترويت فوجدا أنفسهما في حلم لوحة روسو، أريكة وسط الأدغال.

هل سيكون بمقدور بيل وأصدقائه لاعبي الورق سَجن ليزا في قفص؟ قد يكون قفصها الآن خطوط ضوء الشمس المغبرة الساقطة عبر خطوط سكة الحديد للقطارات المعلقة في الشارع الثالث.

أقفل بيل مشغل الأسطوانات قبل أن تنتهي الأغنية المكسيكية.

جاء بيل وأيقظها من حلمها في أكابولكو بقبلة نكهة سيجار تعود لفترة رسمها الواقعي في طفولتها.

رن جرس الباب. كان الدكتور مان يحمل زهوراً لليزا وسيجاراً لبيل.

كان يجمع لوحات ليعرضها في إسرائيل. وأراد أن يستعير بعض رسومات ليزا المكسيكية.

كان قد سمع عن رسومات رونات وقال إنه فخور لأن يأخذ بعضاً منها معه. لكنه لم يكن مولعاً بالرسم. كانت هوايته استثنائية.

يغادر إسرائيل مرة في السنة في مهمة غامضة، ويقضي وقت فراغه في زيارة الكاتبات. زارهن جميعاً واحدة تلو الأخرى. جلب لهن براندي وشوكولا، وكتباً ليوقعن عليها لمجموعة نسخه الموقعة، ويقبّلهن فقط عندما يغادر.

كان يتباهى بهذه الصداقات كما يتباهى الرجال الآخرون بالغزوات الجنسية.

تطلب كثير من هذه الزيارات الصبر والدبلوماسية والبحث. أولاً، العثور على عناوينهن، ثم شخصاً يقدمه لهن، وبعد ذلك تحديد موعد وأصعب شيء مقابلتهن وجهاً لوجه.

شاب شعره وزادت مكتبة كتبه الموقعة ثراءً.

تماماً كما كان دون جوان يختبر سحره على النساء الضعيفات، قابل الدكتور مان أخيراً أكثر كاتبة صعبة المنال وشعر بتحد لخطب ودها. سمع أن مقابلة جوديث ساندز لم تكن صعبة فقط، بل أنها تتجنب كل من له صلة بالعالم الأدبي. كانت تعيش في عزلة في منطقة «القرية» في نيويورك، وأشيع أنها تفضل بارات القرية غير المعروفة والرفقة المجهولة.

قلة من مدمني البارات ذكروا الحديث مع امرأة تدعى جوديث ساندز بضبابية، لكنهم أصروا أنها كانت تتحدث كسائق شاحنة ولايمكن أن تكون قد كتبت الرواية الشاعرية والأسلوبية التي تُمدح عليها.

يذكر من عاش في باريس قبل الحرب امرأة جميلة طويلة القامة مسترجلة ترتدي حلة أنيقة وتجلس في مقهى الدوم.

قلة ممن يقطنون «القرية» عرفوها، ولم يكن عند أحد شيء يقوله، لا أسرار يبوح بها ولا رسائل كما لو أن من عرفوها مارسوا سرية حَجْر المرض، وكما لو أنها أقفلت شفاههم بالشمع. اكتنفها صمت غير طبيعي إما لأنها هجت الجميع، سمة عُرفت عنها، أو لأن من احترموا عملها لم يريدوا إظهار جوديث التي لم تشبه أعمالها الرمزية الأخلاقية.

يمكن لبضع نساء ممن يسرن في الشارع الثامن منتعلات أحذية مسطحة ويرتدين أطقماً أنيقة أن يكن جوديث ساندز. استطاعت في عصر الأضواء الساطعة القاسية أن تتجنب المألوف وتحافظ على عدم معرفتها بصد خفي.

كان كما لو أن روايتها قصة زلزال قد كتبت من قبل إحدى الضحايا. بدا الكتاب وقد كتب والمؤلفة فيه كأنه سقط في صدع.

أثارت شخصية الظل هذه حب الدكتور مان للغزو.

اشترى زجاجة شمبانيا وذهب بسرعة إلى العنوان الذي أعطي له. لم يكن هناك اسم على جرس الشقة، لكن قيل له إنها تسكن في الطابق الثاني. صعد الدكتور مان الدرج المعتم وقرع باباً قاتم اللون، لم يجب أحد.

انتظر ودق ثانية.

صمت.

سار جيئة وذهاباً فوق السجادة الرثة. حدق بابتسامة في

الفتحة الفارغة حيث يلتف الدرج. حين كانت «القرية» إيطالية قبع تمثال قديس هناك. جلس في الفتحة منتظراً. التقطت أذناه صوت خشخشة في الداخل كانت كافية لبعث الشجاعة في كياسته اللفظية.

بدأ في مناجاة لا متناهية كإحدى شخصيات الرواية.

يعرف كل روائي أنه في وقت أو آخر سيواجه شخصاً يجسد إحدى شخوصه. سواء كانت الشخصية قائمة على شخص حي أم لا، ستجذب إلى دائرتها من يشبهها. عاجلاً أم آجلاً، سيجذب تصوير الشخصية توأمه بجاذبية النرجسية، وسيشعر المؤلف أن قاطن روايته قد بعث للحياة ويسمعه يتكلم كما تصوره.

وهكذا بأسلوب المونولوج المتدفق السريع نفسه الذي ابتكرته، استعاد الدكتور مان قصته في سيبيريا حيث أرسل بسبب تمرد ضد النظام، حيث لم يجد ما يقتات به سوى الكتب، وحيث إيمانه بمعرفة النساء الحدسية جعلته يترجم كتاب جوديث ساندز إلى العبرية من هناك إلى زوجته الأمريكية وأطفاله القاطنين شقة حديثة في إسرائيل. ثم عمل في صحيفة وصلته بكل المسرحيات والكتب المكتوبة. «تعرفين يا عزيزتي جوديث ساندز، أنا لست هنا لأخيفك أو التعدي على خصوصياتك. أنا لست رجلاً يزور امرأة. أنا رجل يحب الكلمات بعمق. كما ورد في التلمود «هذا مكتوب». أعرف أنك لا تحبين الغرباء، لكن كونك لست غريبة عليَّ، لا يمكن أن أكون غريباً عليك لأني أشعر أنك، بشكل ما، من أنجبني. أشعر أنك وصفت رجلاً كان أنا قبل أن أعرف من أنا، ولأني عرفته صار بمقدوري أن أكون ذاتي. ستعرفينني عندما تريني. أنا على يقين أنك تعرفين كيف أفكر. هذا المزيج في داخلي الذي يجعلني أعرف طريقي عبر التجربة كما تفعل النساء ومع ذلك أتكلم حتى عندما لا أتمنى الحديث مثل مثقف، دارس (وهذه سخرية لأني لا أعتقد بأنهم يعرفون كما يعرف الشاعر في هياج انفعالاته). شاب شعري وأنا

في انتظار مقابلتك. لم أستطع أن أجد عنوانك أو أي شخص يعرفك. ثم أخبرني سائق عربة أجرة أنه أوصل امرأة تتكلم مثلي، مع رجل بلهجة إنجليزية، وقال إنهما ذاهبان إلى افتتاح حفلة كوكتيل. بعد ذلك عرفت أنك في نيويورك وكنت مع تي. إس. إليوت. التهمت كل كلمة قمت بكتابتها كما لو كانت المن والسلوى. عثور المرء على نفسه في كتاب ولادة جديدة، وأنت الوحيدة التي تعرف أن الرجال أحياناً يتصرفون مثل النساء والنساء مثل الرجال، وأن كل هذه الفروق فروق مضحكة، وهذا يفسر سبب لبس طبيبك باروكة عندما يريد أن يتكلم عن حبيباته، ولا أعرف لماذا كتب توماس مان عن الرؤوس المتنقلة لأن هناك انتقالات أخرى أكثر أهمية وإثارة للاهتمام، وقصتك أكثر القصص دقة في العالم».

لا جواب.

لكن كان هناك صرير كرسي، وخطوات خفيفة على الأرضية خلف الباب.

أضاف الدكتور مان: «سأترك هديتي لك على ممسحة الباب. أتمنى أنك تحبين الشمبانيا».

«أنا لا أشرب» قال صوت منخفض عميق من خلف الباب الموصد.

«حسناً، يمكن أن تقدميها لأصدقائك. غداً سأغادر عائداً إلى إسرائيل الساعة التاسعة مساءً. سأعود في الخامسة بعد الظهر. ربما تفتحين بابك لرجل مسافر. وسترين أنني لست غريباً. تذكري أنه من الجيد للكاتب أن يقابل تجسيد شخصية ابتكرها. يمنحه ذلك توكيداً وإثباتاً مادي على حدسه ونبوءته. أقف الآن أمامك، أقول ما قلت أن بإمكاني قوله، وأذكرك أن ما بدا لك شبحاً في حلم، في قلبك المليء بالدخان في الليل، هو رجل حصل على معرفته وشهاداته من الكتب في زنزانة في سيبيريا، وترجمك على ضوء شمعة».

«عد غداً، سنشرب القهوة معاً» قال الصوت.

جاء في اليوم التالي. لكن لم تكن هناك إجابة على طرقه، لذا بدأ مناجاته: «حين تحرميني من مقابلة كاتبة، فإنك في الواقع تحرميني جزءاً من نفسي لم يولد بعد، أنا في أمسّ الحاجة للإيمان بوجوده. طالما أردت أن أصبح كاتباً، لكني أثرثر كثيراً فتبخر ذلك، أو ربما لم أقرر بعد هل أكتب كرجل أو كامرأة. لكنك كنت كاتبتي التي تكتب لي عن ذاتي. يمكنني الكلام بلا طائل وإهمال لأنك هنا للحفاظ على روحي وكبحها فقط. حين تحرميني من مقابلتك، تقترفين جريمة روحية، لأنني وإن تكلمت سنوات بكلماتك بإسراف وتهور، فإن ذلك لإيماني بمقدرتي على التجدد دائماً من النبع. قد تشعرين أن هذا كان عبئاً ثقيلاً. لا ينبغي إرغام أحد على حمل الذات غير المشبعة لآخر. لكن إن كنت ماهرة في استخدام الكلمات وقمت بكتابتي، بمعنى أنك قمت بسرقتي ويتوجب عليك أن تعيدي ما سلبته ينبغي عليك القدوم والقول: «سأستمر في الكتابة لك. سأكون لسانك. أنجبتك وسأمنحك الامتداد الكامل للحديث». أنت بحاجة لي جوديث ساندز. لا ينبغي عليك خنق نفسك خلف أبواب موصدة. قد تصيب الوحدة كلماتك بالصدأ. الصمت ليس سمتك. سيخنقك. نحن بحاجة لبعضنا بعضاً! لا غنى لنا عن بعضنا. أنا لكتاباتك وأنت لحياتي. إن لم أنفق كلماتك قد لا تحرضين على نحت كلمات جديدة. أنا المبذر وأنت التي تسك العملة. لا يمكننا العيش مفترقين. وإذا نطقت بلسان شخصيتك ربما بطبقة صوت منخفضة أقل مما قصدت، حتى ربما ببضع أصوات زائفة، فذلك لأني لم أقابل كاتباً قط بطبقة صوت كاملة. إذا رفضت الكلام مع رجل بسيط مثلي، سيصبح غموضك ضعفاً غير محمول، مثل نهاية كتابك، الذي لم أفهمه».

فُتح الباب إلى منتصفه. بانت جوديث ساندز مظللة بالضوء. كان خلفها مكان غير مرتب، أشياء غير مميزة في فوضى عارمة. أقفلت الباب على كهفها ومدت للدكتور مان يدها القوية الثابتة.

«لست متأكدة تماماً من معنى نهاية ذلك الكتاب، لكني متأكدة من شيء واحد، أن بإمكان البشر أن يصلوا إلى وحدة يائسة ويمكنهم عبور تخوم ماورائية لا يمكن للكمات التعبير عنها، في مثل تلك اللحظة لا يبقى لهم سوى النباح».

سأل الدكتور مان أثناء سيرهما معاً: «هل صحيح ما يقال إنك كتبت كتاباً آخر تحتفظين به مخفياً تحت سريرك في صناديق، ولم يقرأه أحد».

«نعم هذا صحيح».

«لم لا تسمحين له أن يُقرأ، يُنشر؟ سيقضي هذا على وحدتك».

«كلا، سيعمقها. كلما قرؤوا أعمالي أكثر، كلما أنكروا وجودي أكثر، وجود شخصياتي. يقولون إنني أصف نوعيات فريدة فقط».

«لكن بوسعي أن أريك كيف يتم إعادة تقديم هذه النوعيات. إنها منتشرة في أنحاء العالم. سأصحبك إلى أماكن أعرف أن كتابك فيها ضيف دائم يجلس دائماً في المكتبة، ضيف شرف. ستقابلين من يقتاتون منه فقط، نسل شخصياتك».

لاحظ الدكتور مان كم سعت جوديث ساندز على طمس كل آثار كونها المرأة التي كانت يوماً محبوبة في روايتها. تسربلت بمظهر محايد واختارت ألوناً لا تثير الانتباه ولا تذكر، ملابس عادية ورداءً بلا كمين ملقى على الكتفين يخفي خطوط جسدها وقبعة عليها ريشة. حافظت الريشة على عدم ارتباطها بموضوع له صلة بالأيام التي كانت تربح فيها كل مسابقة بفطنتها.

قال الدكتور مان: «الوحدة مثل الطحلب الإسباني يخنق في الأخير الشجرة التي يتعلق بها».

«وهل تظن أني لم أفكر بهذا كلما دس أحد قطعة ورق تحت بابي قائلاً: «أحبك يا جوديث ساندز» ألا تعتقد أني سألت نفسي إن

كان هذا آخر جاء ليحبني ويحطمني أيضاً؟ مكث رجل في الخارج طوال الليل وفي كل خطوة ابتعد فيها وأنا في انتظاره كان يقطع قلبي إرباً. أو آخر أتى ليسلب صورتي مني ليعرضها على العالم، مشوهة بطبيعة الحال. وآخر أتى ليحيي قطعاً مني كنت قد دفنتها».

«لكن لديك من تحبين، الأطفال المنتشرون في كل أرجاء العالم، المنحدرون مباشرة من ابتكاراتك. أليس عندك فضول واهتمام بهم؟».

«وكيف لي أن أجدهم؟».

«يمكنك السفر الآن والدفع لاحقاً. هناك طائرات جيت أليطاليا، بونازانا، الخطوط التشيلية، خدمات كوميت، فلاينج تايجر، خطوط سليك، فوتانا. أمامك خيار من أسماء عدة. آه غفلت طيران بينك كلاود. سنزور فقط من احتفظ بكتابك على رف علوي ليخفيه عن والديه، من يطالعونه بلغات أخرى: هولندية، إيطالية، ألمانية، يابانية، يوغسلافية، هنغارية، روسية، فلندية، من قرؤوه وتظاهروا أنهم لم يسمعوا به أبداً، ومع ذلك استمروا في العيش وفق توجيهاته، من خضعوا لعدوانه وبحثوا عن جو مماثل كما لو كان الجو الوحيد الذي يمكنهم استنشاقه. من أحبوا شخصياتك وبحثوا عن نظرائهم. من اقتطفوه لبعضهم بعض كشيفرة سرية لدخول العالم الفريد المقصور على فئة معينة. سنذهب إلى حيث كتابك جزء من الأثاث فقط».

«ما الذي يجري الليلة ويمنعنا من ركوب طائرة لرؤية ذلك؟»

«سأصحبك لرؤية آلة تينجولي التي تدمر نفسها».

وهما يناديان على عربة أجرة رفعت رأسها وراقبت طائرة تحلق فوقهما مخلفة خط دخان كتب الكلمات التالية: شاهد أعظم قصة رويت.

ساحة متحف الفن الحديث في نيويورك. ليلة شتاء، الثلج سقط قبل قليل، سديم أزرق كان ينبعث من الرصيف كما لو أنه يتنفس.

في ساحة المتحف تراكمت كومة من الأشياء المغمورة بالضوء لا يستطيع المرء في البدء معرفتها، كومة كالتي قد توجد في ساحة خردة: بيانو قديم، دراجة هوائية مهشمة، عربة طفل بثلاثة عجلات فقط، سلم مكسور لا توجد إلا نصف درجاته، إطارات مثقوبة، صناديق صابون، قوارير قديمة، قطع آلات صغيرة غريبة كالموجودة في مقبرة عربات قديمة.

دهنت الكومة كلها بلون الطباشير الأبيض فبدت كرابية من الأقفاص المكسوة بالثلج. علقت على السقالات قوارير مواد كيماوية ملونة، وكذلك لفة عملاقة من الورق معدة للانفلات كصحيفة تدور في مطبعة. تدلت فرشاة فوقها للكتابة عليها ولحفظ توازنها مثل شريط التلغراف.

أحيط الهيكل برمته بأسلاك ما زال عدد من الرجال يختبرون الوصلات التي تحركه. علا الصرح بالون كبير ومظلة ممزقة مفتوحة فوق مُطفئة حريق.

بدأ الجمهور في التجوال حول الهيكل متعثرين بأسلاك التلفاز وتغشى عيونهم المصابيح الكهربائية المتوهجة.

في كتل الثلج المدلاة في الليل الأزرق بدت الأضواء المتدفقة برتقالية، وخرج الدخان من أفواه الجميع عند الحديث.

كان هناك شجار بين حراس المتحف ومصور تسلق أحد التماثيل الثمينة ووضع حقيبة آلة تصويره على ذراع قيم. أنيرت الوجوه بقوة، طنت آلات التصوير، وبدا أن الهيكل المحاط بالأسلاك على وشك الترنح، وذاب الثلج.

بدا رئيس الإطفاء في بزته الرسمية قلقاً رزيناً.

كان تينجولي مبتسماً هادئاً. ألم يعتقل عندما جر آلته عبر شوارع باريس ليأخذها لمعرض للشك في تصميمه آلة جديدة مدمرة قاتلة؟

كانت هناك قعقعة هزة أرضية. صليل، تبخر، زقزقة، تذبذب، نفخ، هسهسة، تلاعب، خلع، اهتزاز، ثم تشنج الهيكل برمته ففُتحت قوارير المواد الكيماوية وانفجرت في دخان ملون ملأ البالون بالهواء، وأطلق لفة الورق فكتبت الفرشاة أسماء فنانين بطريقة غريبة مثل تسعيرة سوق البورصة. لكن ما أن انتهت اللائحة حتى عادت لفة الورق لتلتف بشكل معاكس وتبتلع الأسماء في ارتكاسها اليائس.

فصلت عربة الطفل نفسها عن كتلة الهيكل المهتزة المفرقعة المحترقة كما لو تمنت الهرب من الدمار. تدحرجت صوب أحد الحضور كما لو أنها تبحث عن طفل بين الحضور. كان فيها طبل يعزف أتوماتيكياً، ثم عادت كأنها منومة بالحبال السرية الإلكترونية، مستسلمة لمصيرها وغير قادرة على الفرار. قامت بغارة أخرى صوب الحاضرين، مناشدة أخرى من طبلها، استغاثة حياة، وتدحرج محتم عائد إلى المحرقة.

بدأ البيانو في الاحتراق ببطء، وفي احتراقه عزفت موسيقى غير حقيقية بحزن ودون انسجام. قضت ألسنة اللهب على الخشب لكن ليس النغمات والأسلاك. عزفت الألحان كصرخة موسيقى وقعت في شرك، خاوية لافظة أنفاسها الأخيرة.

قعقع الهيكل كله بغرابة بإيقاعات مضادة تنفث بحمق، كل الحركات معكوسة ومتداخلة في بعضها بعض، تنكر وتقلب فاعليته، تنحني وتلتف وتمزق نفسها، حركة إلى الداخل تنتهي أحياناً بفشل حتى يصبح بوسع النار الانتشار بسرعة. اهتز السلم وسقطت منه

بضع درجات. لفظ البالون الكائن في أعلى الهيكل، البالون البرتقالي الكبير، أنفاسه وانفجر. انبعثت منه المواد الكيماوية خضراء وبرتقالية وزرقاء.

فُتحت الورقة التي تتضمن أسماء الفنانين ثانية، وأضيفت إليها أسماء أخرى، ثم عادت لتبتلعهم وأخيراً وصلتها ألسنة اللهب.

بدت أحياناً كمصنع جهنمي أصاب الجنون كل عملياته، حيث الروافع والأزرار تقوم بنقيض ما صممت من أجله، كل آليات العمل عكست.

التهمت النار نوتة بيانو أخرى، وبقيت ثلاث نوتات تعزف فقط. ثم اثنتان، وبعد ذلك واحدة لم تود الموت.

وقف رئيس رجال الإطفاء في الجوار مهموماً متعجباً في أي لحظة قد يصبح انتحار الآلة محاولة لقلب الحكومة.

التقى الدخان وروح الشتاء وسط الهواء. ذاب الثلج على الأطراف، لكن الدهان الأبيض بقي.

عزف البيانو وصية بيانو محتضر. دنا الحضور أقرب لسماع آخر ألحانه. رفع رئيس رجال الإطفاء طفاية النار.

احتج الفنان آنذاك على مقاطعة ذروة عمله. استهجن الحضور تصرف الرئيس. قال الفنان إن كل شيء على ما يرام، لكن الرئيس لم يقتنع وراح يخمد النار.

انفجار آخر لمادة كيماوية برتقالية، انفجار بالون آخر، مظلة أخرى تغلق بحزن، قطعة خشب تسقط أرضاً، إطار آخر يتدحرج من الآلة النابضة، صُرْع قصدير، هيجان لهاث آخر، دوران معدن آخر وفواق آخر.

تدخل رئيس الإطفاء في الدراما، وأعاق العملية. لو لم يحترق السلم لما تسلقه لإنقاذ البيانو وعربة الطفل. الانتحار غير قانوني.

لم ينهَرْ هيكل تلك الكومة الديناصورية التعيسة، وكان انتحاره على وشك الفشل. رفس الفنان آخر عمود سُنِدَ بسرعة وحرص فانهار. اقترب الحضور أكثر من البقايا المنبعث منها الدخان، وأخذوا قطعاً مفككة منه للذكرى.

* * *

تفرق الحشد. ذهب الصحفيون لكتابة تقاريرهم. حمل الجميع قطعاً من الركام الأبيض. أنقذ الدكتور مان لفة الورقة التي عليها أسماء الفنانين ولم تحترق. كان اسم جوديث ساندز من ضمنها. أثناء وقوفهما قرب ركن الشارع ليناديا على عربة أجرة خرجت رونات وبروس من الباب الدوار. عرفت رونات الدكتور مان، وحين قدم لها جوديث ساندز قامت باحتضانها.

«أحب كتابك حتى أنه بَلِيَ من كثرة قراءتي له، وصار يبدو كمجموعة بطاقات عرافة غجرية بالية».

لاحظ الدكتور مان أنهما الوحيدان اللذان كانت أيديهما خالية.

قالت رونات: «أردنا أن ننقذ البيانو. شعرت أن أغنية ما زالت فيه. لم أود أن أنقذ أي شيء ميت».

«دعونا نجلس في مكان ونتناول شراباً، ثم نقرأ أسماء الفنانين الموجودة في لفة الورق».

قالت جوديث ساندز بصوت خشن إلى حد ما: «لنعد إلى شقتي، هناك ما أود أن أريه لكم».

تبعوها. في الشقة خافتة الإضاءة كان بإمكانهم رؤية لوحات على الحائط وكتب عديدة. كان النور الوحيد منبعثاً من ضوء منضدة. ذهبت جوديث ساندز دون أن تخلع المعطف عديم الأكمام إلى الأريكة. نهرت بلطف قطتين كانتا هاجعتين عليها، ركعت على

ركبتيها وسحبت صندوقاً من الكرتون مكدسة فيه أوراق حتى حافته، سحبت مجموعة مضمومة معاً بمشبك وقدمتها لرونات لتقرأ:

«كانت فيينا مدينة التماثيل، إذ أن عددها يماثل عدد المارة في الشوارع، وانتصبت على قمم أعلى الأبراج، وجثمت على حجارة القبور. جلست على ظهور الخيول، راكعة مبتهلة قاتلت الحيوانات وخاضت الحروب. رقصت واحتست النبيذ وقرأت الكتب المصنوعة من الحجر...».







«كانت ڤيينّا مدينة التماثيل، إذ أن عددها يماثل عدد المارة في الشوارع، وانتصبت على قمم أعلى الأبراج، وجثمت على حجارة القبور. جلست على ظهور الخيل، راكعة مبتهلة قاتلت الحيوانات وخاضت الحروب. رقصت واحتست النبيذ وقرأت الكتب المصنوعة من الحجر...».

بهذه الترنيمة تبدأ وتختم «أنايس نين» روايتها، عبر تقاطع شخصيات يبدو عبثياً للوهلة الأولى، غير أن قراءة متأنية لهذا الـ«كولاّج» اللغوي تؤكد عكس ذلك. إن هذه الرواية سبر لأغوار المخيلة والحلم عبر عيني رسامة شابة غريبة الأطوار. وقد اعتُبرت هذه الرواية عملاً بالغ التطرف سنة نشرها في العام «1964»، إذ أن المؤلفة تكتب في حِلٍّ تام من البنية التقليدية وتترك العنان لشخصياتها بالتجول في المكان والزمان بحرية مطلقة في محاولتها لوصف الحياة بكل صفاء الحلم المبعثر.

تستخدم المؤلفة الكلمات بروعة كما الألوان، بأسلوب تحريضي ونثر محكم اقتصادي بالغ الجرأة. لادهشة إذن إن قورنت بمارسيل بروست.

الناشر